كتاب في جريدة
أصدرته منظمة اليونسكو عام 1996
زوروا موقعنا على الإنترنت: www.kitabfijarida.com
عدد 119 – الأربعاء 2 تمّوز (يوليو) 2008

الشاهنامة

للفردوسي

– مقتطفات –

إعداد وتقديم: حسن داوود



الشريك الثقافي



المؤسسة الراعية



سعادة السيد كويشيرو ماتسورا Koïchiro Matsuura المدير العام لليونسكو
ومعالي الشيخ محمد بن عيسى الجابر MBI Al Jaber





برعاية كل من مؤسسة MBI Al Jaber Foundation ومنظمة اليونسكو UNESCO وبمشاركة كبريات الصحف اليومية العربية ونخبةٍ رائدةٍ من الأدباء والمفكرين، يتواصل أكبر مشروع ثقافي مشترك «كتاب في جريدة» من أجل نشر المعرفة وتعميم القراءة وإعادة وشائج الإتصال بين عموم الناس ونخبة الفكر والإبداع في المجتمع العربي ليقدّم هديّته كلّ شهر بأكثر من مليوني نسخةٍ لكتابٍ من روائع الأدب والفكر قديمه وحديثه.

المؤتمر التاسع لـ«كتاب في جريدة»، فيينّا، 24–27 أبريل (نيسان) 2008

بيان صحفي

بدعوة من معالي الشيخ محمد بن عيسى الجابر، المبعوث الخاص لمدير عام اليونسكو للتربية والتسامح والسلّام والديمقراطية، وبرعاية منظمة اليونسكو ممثلة بالدكتور أحمد الصياد مساعد المدير العام للعلاقات الخارجية والتعاون، والدكتور عبدالرزاق النفيسي، رئيس المجموعة العربية، السفير المندوب الدائم لدولة الكويت لدى اليونسكو وبمشاركة عدد من الادباء والمفكرين والإعلاميين العرب أعضاء الهيئة الاستشارية (أدونيس والدكتور جابر عصفور، والدكتور مهدي الحافظ والدكتور هشام نشابة والدكتورة فريال غزول والأستاذ ناصر العثمان والدكتور أحمد بن عثمان التويجري وأحمد ولد عبدالقادر) ورؤساء تحرير عدد من كبريات الصحف اليومية من مختلف العواصم العربيّة، الشريكة في «كتاب في جريدة»، وبحضور جمع كبير من رؤساء البعثات الدبلوماسية والوسط الإعلامي العربي في العاصمة النمساوية، عُقد المؤتمرُ التاسع لـ «كتاب في جريدة» في الفترة الواقعة بين 27 - 24/04/2008 في فندق Grand Hotel Wien.

عبّر المؤتمرون خلال الحفل الافتتاحي وجلسات العمل عن الحماس الكبير والدعم لمسيرة هذا المشروع العربي الرائد مؤكدين على مواصلة مسيرته وتطويره ومؤازرين كل العاملين والشركاء من الصحف العربيّة التي تقدم عبر «كتاب في جريدة» النموذج العالمي الأكثر نجاحاً حسب منظمة اليونسكو لمشاريع وبرامج نشر المعرفة وإشاعة القراءة من أجل الدفاع عن هويّة وثقافة الشعوب.

وقد أكّد المؤتمر على أهميّة توسيع دائرة التوزيع وإشراك عدد أكبر من الصحف خاصة في شمال أفريقيا التي ما زالت مشاركتها لا ترقى إلى مستوى الطموح بسبب قلّة الصحف الشريكة في حين أثنى المؤتمر على الجهد الكبير الذي تقدمه صحيفة «العرب» التي توزع في أكثر من عاصمة عربية في شمال أفريقيا.

كما حيّا المؤتمر دور صحف مثل «الشعب» الموريتانية و«الأحداث» السودانية اللتان تواصلان النشر والتوزيع بالرغم مما تعانياه من وضع إقتصادي حرج.

ورحّب المؤتمر بعودة «العراق» إلى الشبكة الصحفيّة ممثلا بصحيفة «الصباح» بعد أن كان طيلة العشر سنوات السابقة معزولاً عن المشاركة في هذا العمل الثقافي العربي المشترك.

وفي الختام عبّر المؤتمرون جميعاً عن شكرهم وتقديرهم العميق لمعالي الشيخ محمد بن عيسى الجابر لدعوته الكريمة ولرعايته الكاملة لهذا المشروع الذي يجمع أطراف الخارطة العربية ويوحّد نسيج هذه الأمّة سعياً من أجل بناء جيل عربي قادر على الدفاع عن حضوره اليوم في عصر التحديات الكبرى.

شوقي عبدالأمير
المشرف العام

كما أقر المؤتمرون بالاجماع قائمة الإصدارات الجديدة*.

تراث

1- كتاب الأغاني
2- نصوص لإبن رشد
3- أبو نؤاس – مختارات
4- شعراء الواحدة – ديوان
5- بلاغات النساء لابن طيفور – مختارات
6- عقلاء المجانين لابن حبيب – مختارات
7- صفة جزيرة العرب للهمداني – مختارات
8- رحلة ابن جبير – مختارات
9- كتاب عن فضائل المدن – مختارات
10- الشعراء الصعاليك
11- حياة الحيوان للدميري – مختارات

مؤلفات معاصرة

1- وعاظ السلاطين – علي الوردي
2- عين وجناح – محمد الحارثي
3- كتاب لفاطمة المرنيسي
4- مختارات من أدب المقالة المعاصر
5- يوم في بغداد – شوقي عبدالأمير
6- فردوس «رواية» – محمد البساطي
7- مختارات من القصة القصيرة – النسائية السعودية
8- مريم الحكايا – علوية صبح
9- ثلاثية غرناطة – رضوى عاشور
10- تبيان الفحولة – رجاء بن سلامة
11- ممدوح عدوان – مختارات شعرية
12- عبدالسلام العجيلي – رواية
13- علي أحمد باكثير – رواية
14- الإسلام في أفريقيا – خليل النحوي
15- القبر المجهول – رواية – أحمد ولد عبدالقادر
16- إشكالات الثقافة الافروعربية في السودان – عبدالله علي ابراهيم
17- أوديب – ترجمة طه حسين
18- أوفيد – ترجمة أدونيس
19- رحلات في بلاد العرب – كارستن نيبور
20- إدوارد سعيد – القلم والسيف (أو كتاب الاستشراق)
21- رواية «نجمة» – كاتب ياسين
22- كتاب عن «المواطنة»

* أقر المؤتمر ترك ثلاثة عناوين مفتوحة للهيئة الاستشارية لتحديدها خلال الفترة القادمة.



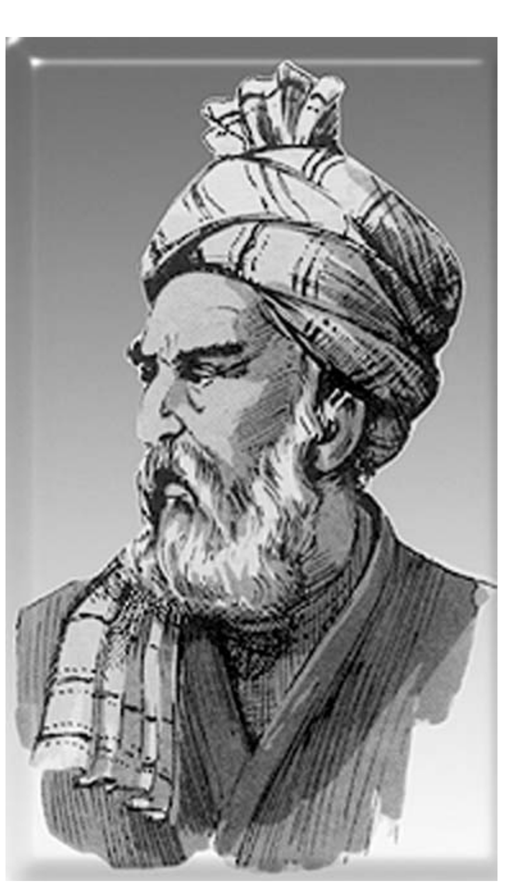
الشاهنامة

للفردوسي

–مقتطفات –

إعداد و تقديم: حسن داوود

فيما تتواصل أحداث الألياذة لستة وخمسين يوماً تمتد الشاهنامة في الزمن جامعة تاريخاً يبدأ من خلق العالم وخلق الإنسان من بعده وينتهي بزمن الفتح الإسلامي. أما التاريخ ذاك، الذي ابتدأه الله «بخلق شيء من لا شيء»، فهو الحادثة الأولى التي ستتوالى من بعدها تواريخ الإيرانيين بدءاً ممن تعتبرهم الشاهنامة سلالتهم الأولى، وهم البيشداديون، مروراً بالسلالات اللاحقة حتى ما بعد عهد ملوك الطوائف ومن تلاهم.
أكثر ذلك التاريخ خصصته الشاهنامة، في ما يزيد عن نصف الكتاب، لذلك النزاع المتطاول بين الإيرانيين والتورانيين الأتراك (وهؤلاء وأولئك، كما في الشاهنامة، يرجعون إلى جد واحد هو أفريدون). لم تتوقف الحروب بين الشعبين على مدى عهود ملوك كثيرين حكم بعضهم مدداً تتجاوز العمر الطبيعي للإنسان حتى بدا الملوك أولاء أقرب إلى أبطال أسطوريين. أما البطل الأسطوريّ الأوّل فهو رستم الذي عايش عهود أكثر الملوك لينصرهم بقوته وبأسه اللذين لا يحدّهما حدّ، وبحنكته في قيادة الجيوش.
أي أننا لو جئنا لإحصاء السنوات التي عاشها رستم لفاق عددها الألف قالت الشاهنامة في منتصفها ان الكبر والتعب بدأ يدركانه وينالان منه. وقد كان رستم هذا في موقع الملوك إذ أن ممتدّه يتماشى مع ممتدّ ملوك الإيرانيين حتى أننا نظن، فيما نحن نقرأ صفحات الشاهنامة، ان تاريخ الأسرتين متداخل يبدو فيه رستم واحداً من ملوك البيشداديين، أبناء الشجرة الأصل.
أما الأحداث الجامعة بين ما يسميه عبدالوهاب عزام، مصحح الترجمة ومعيدها كاملة إلى النشر، التاريخ والخرافة، فنقرأها في حياة الملوك الذين هم، جميعهم، قادة حروب. الشاهنامة تظهر لنا فيضاً من الدم والحرب والقتل لم يسبق لقارئ أن شهده في أيّ من الكتب، القديمة والحديثة. ذاك ان ذلك النزاع الطويل، الممتد قروناً، بين الإيرانيين والأتراك، لم يتوقف أبداً. أما ازدهار الأمة الإيرانية، ودائماً كما يتبدى في الشاهنامة، فكان عليه أن يجري في إبان تلك الحروب، وهذا ما يبدو غريباً ومنافياً للإعتقاد والظنّ. فإلى جانب المواجهات العسكرية التي يحشد لها عشرات الآلاف من الجنود، بل ومئات الآلاف أحياناً، لا يتوقف السرد عن ذكر الثروات التي تُهدى أو يجري تبادلها بين الملوك أو تُعرض لهم زينة إثر كل عودة لهم من الحرب أو ذهابهم إليها.
النزاع الذي لم يهدأ أبداً بين الإيرانيين والتورانيين يجعل صفة الأزمنة تلك محصورة في أمرين: القتال، ثم استعراض الثروات النفيسة التي يبدو الذهب أقلّها شأناً. جانب الخرافة المذكور أعلاه تُرك له تقدير تلك الثروات والإفاضة في تعدادها. الخرافة تذهب أيضاً إلى تعيين خصال الأبطال وإلى الوقائع الأسطورية التي تجري بين البشر الذين، في غفلة ما، يتحولون إلى آلهة تخففت من الشروط التي تُركز البشر في الأرض وتخضعهم لقوانينها.
يقول الفردوسي في مقدمة الشاهنامة عن الدقيقي الشاعر الذي بدأ بتدوين أخبار ملوك الفرس: «فلما قرأت هذه القصص على الناس أعارتها الدنيا سمعها وقلبها، وأولع بها العقلاء والحكماء». وإذ أتى الدقيقي إلى كتابة الفصول التي تعقب سيرة كشتاسب وأرجاسب ذهب عمره بعدما قتله أحد عبيده. ثم يقول الفردوسي: «فلما يئس قلبي منه (الدقيقي) توجهت تلقاء ملك العالم لعليّ أظفر بهذا الكتاب فأنظمه. سألت أناساً لا يحصيهم العدّ وأنا أوجس خيفة من غيَر الزمان، وأخشى ألا تمتد بي الحياة فأتركه لغيري...».
ويكتب الدكتور أحمد حسن الزيات، معيد ترجمة الشاهنامة ومصحّحها عن المخطوطات الباقية من ترجمة الفتح بن علي البنداري: «كنت أمنّي نفسي قراءة الكتاب، وأشتطّ في التأميل أحياناً فأمنّيها حين يتاح لي علم اللغة الفارسية». لكنه عرف بعد أعوام، في العام 1927 على الأغلب، أن الكتاب سبق أن تُرجم إلى العربية وأن هناك نسخة منه في كمبردج، فقصد بريطانيا للإطلاع عليه. ثم تبين له أن هناك نسخاً أخرى أورد ذكرها في مقدمته: «اجتمع لي إذا ثلاث نسخ كاملات: نسخ برلين وكوبرلي وطوب ڤيو سراي (في الأستانة)».
وقد فصّل عزّام كل ما يتعلق بترجمته، أو بتحقيقه، ذاكراً تاريخ الكتاب وتاريخ كتب تاريخ الفرس مبيّناً ما اعتمده في مقابلة المخطوطات. وهو جعل ذلك في نحو ثمانين صفحة تعدّ في ذاتها مبحثاً قيّما في أصول الترجمات والتقديم لها، وعملاً نادراً في ذلك الزمن، أواخر العشرينات ومطلع الثلاثينات من القرن العشرين المنصرم، بل وفي ما تلا ذلك من سنوات. وقد احتفلت الأوساط الثقافية بالكتاب عند طباعته. لكن لم يستمر الإحتفال إذ لم تطبع منه إلا تلك الطبعة الواحدة، مكرّسة بذلك ما يقال عن إهمالنا العام لما يسبق له أن تحقّق لنا أو حققناه بأنفسنا.
عملُ عبدالوهاب عزّام كان ينبغي له أن يكون أمثولة نحتذيها في الدقة والدأب وطول الأناة والتفرّغ للعلم.. لكن عمله ذاك بقي هناك، في الزمن الذي ظهر فيه، وهو، إذ أعيد نشره، ففي طهران التي صوّرته عن طبعة «دار الكتب المصرية» الصادرة سنة 1351 هجرية (1932 ميلادية). أما الطبعة الثانية فأصدرتها دار سعاد الصباح بعد واحد وستين عاماً (1993 ميلادية).



الفردوسي

الراعي
محمد بن عيسى الجابر
MBI AL JABER FOUNDATION

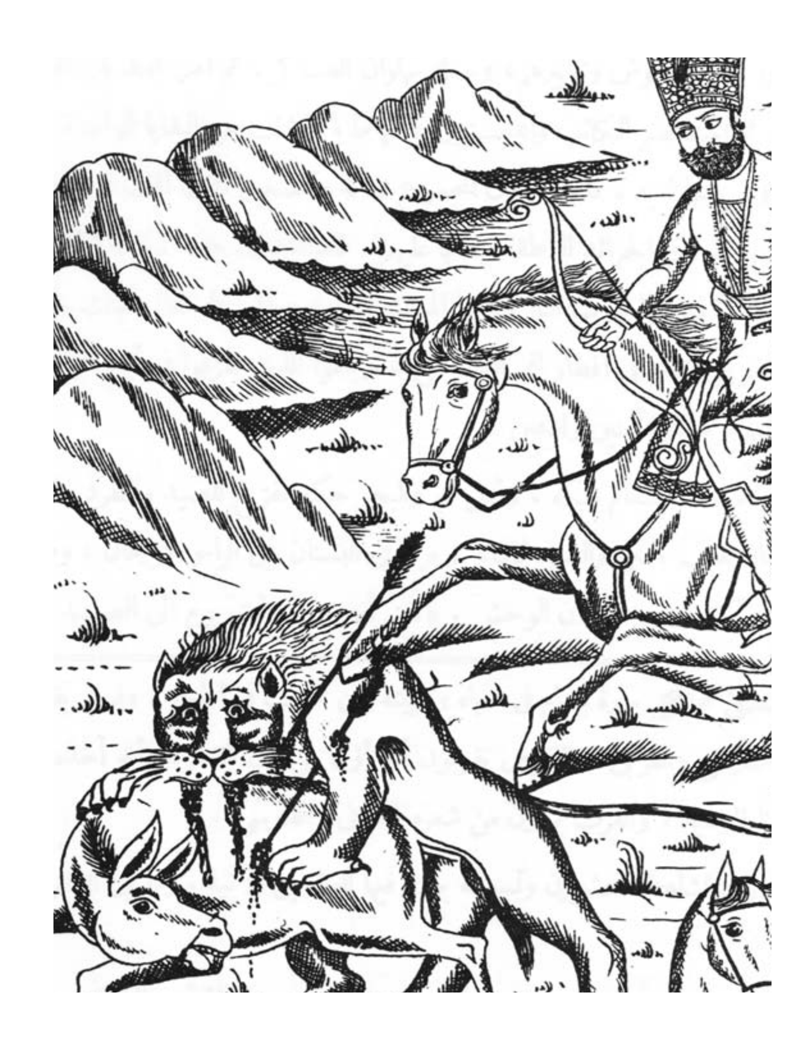
المؤسس
شوقي عبد الأمير

المدير التنفيذي
ندى دلّال دوغان

سكرتاريا وطباعة
هناء عيد

المحرّر الأدبي
محمد مظلوم

المَقَّر
بيروت، لبنان
يصدر بالتعاون
مع وزارة الثقافة.



تصميم و إخراج
Mind the gap, Beirut

الإستشارات الفنية
صالح بركات
غاليري أجيال، بيروت.

المطبعة
پول ناسيميان

الإستشارات القانونية
«القوتلي ومشاركوه ـ محامون»

المتابعة والتنسيق
محمد قشمر

كتاب في جريدة
عدد رقم 119
(2 تموز 2008)
الطابق السادس، سنتر دلفن،
شارع شوران، الروشة
بيروت، لبنان
تلفون/ فاكس 835 868 (1-961+)
kitabfj@cyberia.net.lb
kitabfijarida@hotmail.com



الصحف الشريكة
الأحداث – الخرطوم
الأيام – رام الله
الأيام – المنامة
تشرين – دمشق
الثورة – صنعاء
الخليج – الإمارات
الدستور – عمّان
الرأي – عمّان
الراية – الدوحة
الرياض – الرياض
الشعب – الجزائر
الشعب – نواكشوط
الصباح – بغداد
العرب – تونس، طرابلس الغرب ولندن
مجلة العربي – الكويت
القاهرة – القاهرة
القدس العربي – لندن
النهار – بيروت
الوطن – مسقط

خضع ترتيب أسماء الهيئة الإستشارية والصحف للتسلسل الألفبائي حسب الاسم الأول



الشاهنامة
للفردوسي
–مقتطفات–

مقال في خلق العالم

لا بُدَّ أن تعرفَ باديءَ بدءٍ أصلَ الجواهر: قد خلق الله شيئاً من غير شيءٍ لتتجلّى قُدرتُه. ثم خلق منه أربعةَ عناصر لم يمُسّه نَصَبٌ ولم يحتجْ إلى زمن. بدأ بالنارِ المُضيئةِ العاليةِ، ثم جعلَ الماءَ والهواءَ وسطاً بينها وبينَ التُّراب المظلم. اضطرَمت النارُ فظهرَ اليَبسُ من حَرِّها، وفثأت الحرارةُ فكانَ البرد، ومن البردِ نشأتْ الرطوبةُ. فلما خُلقتْ عناصرُ هذا العالم الفاني عملَ بعضُها في بعضٍ فظهرتْ الأنواعُ كلها: ظهرتْ هذه القبّةُ سريعةُ الدوران تُبدي كلَّ يوم من عجائبِها، ووكلت السبعة بالاثني عشر. وأخذَ كلٌّ مكانَه المقدّر. وبدتْ القسمةُ والعطاءُ فأعطى الخالق كما يجدر بالعالم. وخُلقتْ الأفلاكُ طباقا، وتحرّكتْ حين اتّسقتْ. وظهرتْ الأرضُ وبحارُها وأوديتُها ورُباها كالمصباح المضيء. وارتفعتْ الجبالُ، وسالتْ المياهُ، ونما النباتُ. ولم تُقدّر الرفعةُ لهذه الأرض فكانتْ مركزاً أسودَ مُظلماً. وظهرتْ النجومُ فوق في عجائبِها، وانتشرَ الضياءُ على الأرض. وصعدتْ النارُ، وهبطَ الماءُ. ودارت الشمسُ حول الأرض. ونبتَ العشبُ وأنواعُ الشجر، وقُدّرَ لها أن تنمو صاعدةً ليس في طَبعها إلا النُّموّ؛ لا تستطيع أن تَنتشرَ على الأرض كالحيوان. ثُم ظهر الحيوانُ فسيطرَ على النباتِ كُلّه، ودأبَ يطلبُ الطعامَ والسلامةَ والنومَ. يتمتّعُ بهذه الحياة، ليس له لسانٌ ناطقٌ ولا عقلٌ مفكر، وإنما همُّهُ أن يُربّي جسمَهُ بما وجَدْ، لا يعرفُ الخيرَ ولا الشر في العواقب، ولا يُكلفه الخالقُ عبادةً. إنه العالِمُ القادرُ العادلُ فما أخفى فَضلاً. ذلك ولا يعلَمُ أحدٌ عُقبى العالم سراً أو علانية.

مقال في خلق الإنسان

ثم ظهر الإنسانُ فكان مفتاحاً لهذه الأغلاق. خُلقَ عاليَ الرأس غيرَ ذي عَوج كأنّهُ سروٌ سامقٌ، ذا منطقٍ حسن وعقلٍ يُصرّفُ الأمورَ، مزوّداً بالحكمة والرأي السديد والذكاء فَخَضعت لأمره البهائم. فكِّرْ قليلاً! كيف يكون الإنسان ذا معنى واحد؟ كأنكَ تظنُّ الإنسانَ هذه الصورةَ الحقيرةَ ولا تعرفُ فيه أثراً وراءَ هذا! إنك أُنشئتَ من العالَمين فكُنتَ وسطاً بينهما. أنت الأوّلُ في الخلق وإن جئتَ آخراً. فلا تَستهترْ باللهوِ واللعبِ. وقد سمعتُ من بعضِ العلماء غير هذا، وماذا نعرفُ نحن من أسرار خلق العالم؟

أنظر في عاقبةِ أمرك: «وإن تنازعَ في نَفسكِ أمران فاخترْ أحسنَهما. وروّضْ نفسكَ على المَشاقِّ فجديرٌ حملُ المشاقِّ في سبيل العلم. وإن تَردْ السلامةَ من كل شرٍّ وأن تنجوَ بنفسِك من حَبالةِ البلاء، وأن تَخلُصَ من السوءِ في الدارين، وأن يَرضى الخالق أعمالَك». فتأملْ هذا الفَلَكَ الدوّارَ الذي هو مصدرُ الداءِ والدواءِ، ذلك الفلكُ الذي لا يُبليهِ تعاقُب الزمان، ولا ينالُ منه التعبُ والنصَبُ، ولا تُعييهِ الحركةُ ولا يمُسّه كما يمُسّنا العَطَبُ. فمنهُ الزيادةُ والكثرةُ، وعندَهُ يظهرُ الخيرُ والشر.

مقال في خلق الشمس

الفلَكُ من ياقوتٍ أحمر ليس من الهواءِ والماءِ والتراب والدخان. وقد تبدّى في زِينتِه ونُورِه كبُستانٍ يومِ النوروز. يجري فيه جوهرٌ يملأ الصدورَ سُرورا، يمدُّ النهارَ بالضياءِ، يرفعُ رأسَه المضيءَ كل صباحٍ من المشرقِ كأنه ترْسٌ من ذهبٍ، فيكسو الأرضَ أثواباً من النور، ويُبدِّلُ العالمَ من ظلامِه ضياءً. فإذا مالَ للغروبِ بدتْ رأسُ الليلِ المُظلمِ في الشرق. هكذا دواليك لا يدرُكُ أحدهُما الآخر، وذلك أقومُ نظام. أيّها الذي هو شمسُ كل حينٍ ما بالك لا تشرقُ عليَّ قط؟

مقال في خلق القمر

مصباح أعدّ للّيلِ المُظلم – إحذر ما استطعتَ أن تَضلَّ في ظُلمات الشر– يختفي يومين وليلتين كأن الدورانَ قد أبلاه. ثم يتراءى محقوقفا مُصفرّا كالإنسان وَلْهَهُ



العشق. ولا يكاد البصرُ يُدركُه من بعيد حتى يَحتجب. وفي الليلةِ التالية يزدادُ ظُهورا فيُزيدُكَ نورا. حتى يكمل في أسبوعين فيعود سيرتَه الأولى؛ يزيدُ نحولا على مر الأيام، واقتراباً من الشمس المنيرة. كذلك أعطاهُ الخالق خَلقَه، فِطرةً لا يُزايلها ما بقي.

ذكر ولادة زال وابتداء أمره

قال: كان «سام بن نريمان» بهلوانَ العالم في عَهد «منُوجهر». وكانَ يبتهلُ إلى الله تعالى ويسأله أن يرزقه ولداً يكون قُوّةً لظهره، وقُرّةً لِعينه. وكانتْ له جارية فحَملتْ منهُ. فلما أُخبرَ بذلك شكر الله تعالى، ولم يزل يعدّ الليالي والأيام، منتظراً طلوعَ صبح ما ارتجى، وحصولَ ما أراد وابتغى. فولدتْ ولداً ذكراً كأنه القمر إضاءةً غير أن شعرَه كان أبيض يَشتعلُ شيباً كرؤوس المشايخِ الطاعنين في الأسنان. فَبشّرَ سام بذلك. فلما رآه على تلك الهيئةِ استقْبحَهُ، ونَفرَ عنه طبعه، ورفعَ رأسَه إلى السماء وجعلَ يدعو الله ويبتهلُ إليه، ويظن أنه لِمعاصيه وذُنوبهِ ابتلاه الله في ولده بتلكَ الهيئةِ القبيحة. وأمرَ به فأخرج إلى جبل «ألبَرز»، وهو جبلٌ عظيم من جبال الهند. وأصعدَ به إلى ذلك الجبل، وتُركَ في بعض شعفاتِه وحيدا. وكان على رأس الجبل مُعششُ العنقاء. وكانت تطيرُ في طلب الرزق لأفراخها، فرأتْ ذلك الصبي في مثل ذلك الموضع. فألقى الله تعالى في قلبها محبةً منه فجاءتْه ورفرفتْ بجناحِها عليه، ثم حملتهُ وحلّقتْ به إلى رأسِ الجبل، ووضعتهُ بين أفراخها. فكانت تُربّيه مع أولادها حتى طالتْ عليه المدّة في قُلّةِ ذلك الجبل، وتَرعرعَ بين أفراخِ العنقاء. وكانتِ القوافلُ تعبرُ تحتَ ذلك الجبل فوقعتْ أبصارُهم على مولودٍ إنسي بين أفراخِ العنقاء في شعفةِ الجبل فقضوا العجبَ من ذلك وتحدّثوا به. حتى بلغَ الخبرُ إلى سام. ورأى هو أيضاً في منامه ليلةً كأنَّ رسولاً جاءَ على فَرس كالبرقِ الخاطفِ فأعلمهُ أن ولده على بعض الجبالِ فانتبه وأحضرَ الحكماءَ والمعبّرينَ وسألهُم عن حالِ رؤياه. فعبروها على أن الله تعالى لما رأى جفاءَك على ولدك حينَ أبعدتَهُ ونفيْتَهُ وطرحتَه على بعض الجبالِ وحيداً فريداً تعطّفَ برحمته عليه فربّاه ووقّاه، وهو حيٌّ يُرزق. فتوجّهْ إلى الجبلِ وتَضرعْ إلى الله وتبْ إليه فإنه يَرُدُّ عليكَ ولدك. فَفَعلَ ذلك وأقبلَ إلى تلكَ الجبالِ يدور في مخارمها وشعابها وحيداً، ويبكي ويتضرعُ إلى الله ويسأله أن يردَّ عليه ابنه. قال: فألهمَ الله العنقاءَ أنه إنما يدور في هذه المخارم والشعاب لِطلبِ ولدِه ذلك. فحلّقتْ نحوه، وكانت سمّتْهُ «دستان»، وقالتْ: إن أباك قد جاء. وهو يدورُ في هذه الجبال مُحترقَ القلب، منسكبَ الدمع عليك. وقد ربيتُك مثل أفراخي، وأنت أعز عليّ من روحي. وأرى لك أن أحملكَ بين جناحيّ إلى أبيك. فإنك ستصيرُ ملكاً من الملوك، ويعظمُ شأنُك بين الخلق. وأنا أعطيكَ من جَناحي ريشةً. فإذا حزَبَكَ أمرٌ مهمٌّ فأحرقْها فإني سأحضرُ



العنقاء:

يرى القارئ في هذا الفصل ما فعلت العنقاء بـ «زال» بن «سام». وسيرى بعدُ كيف تعين «رستم» في حرب اسفنديار. والعنقاء ترجمة «سيمرغ» في الشاهنامة. وهو أحد الطير الخرافية التي يكثر ذكرها في الأساطير الايرانية الدينية والتاريخية. وكلمة سيمرغ تجانس (سه مرغ) أي ثلاثة طيور و«سى مرغ» أي ثلاثين طائراً. وقد استعان فريد الدين العطار بهذا الجناس الأخير في كتابه «منطق الطير» فأبدع أيما إبداع. ويرجح أن اللفظ مركب من «سِه مرغ» أو متوهم فيه هذا التركيب. فإنه يذكر في «بُندَهِش» باسم الرخم ذي ثلاث الطبائع. وفي «بندهش» أن نوعين من الطير لها لبن ترضع به فراخها: الرخم والخفاش الذي يطير بالليل، فالخفاش مخلوق من أجناس ثلاثة: الكلب والطير، وفأرة المسك لأنه يطير، وله أسنان كثيرة كالكلب، ويتخذ جحراً كفأرة المسك.

وقد تطوّرت به الأساطير أطواراً وذكر بأسماء مختلفة. ففي «الأبستاق» يذكر باسم «سئينا».

ومسكن السيمرغ على الشجرة التي تقي كل البذور وهي في المحيط الواسع على مقربة من شجرة الخلد. تجتمع عليها البذور التي أنتجتها النباتات كلها طول السنة. وإذا طار السيمرغ نبت ألف عسلوج في هذه الشجرة وإذا وقع كسرتْ هذه العساليج ونثر بذورها. فيأتي طائرٌ آخر اسمه «حمرُش» يعشش في قمة جبل ألبرز ويحمي إيران من غارات الأعداء. فيلتقط البذور ويحملها إلى الماء الذي يأخذه تِشتَر (ملَك المطر) فيقع البذر مواقع المطر في الأرجاء كلها.

وقد صار السيمرغ بعدُ مثال الحكمة العليا. وقد اتخذه بعض الصوفية رمزاً للحق تعالى.

وللطير في دين الايرانيين وأساطيرهم مكانة. فالطائر «كِرسِپتا» الذي يقرأ الأبستاق بلغة الطير قد أدخل الدين إلى البناء الذي أوى إليه «جمشيد» – كما تقدّم – و«هُما» عندهم طائر إذا وقع ظله على إنسان صار ملكاً. وفي الأبستاق أوصاف عجيبة للطائر «ارِنغَنا». والسهم الذي رمى به أرش فطار من الفجر إلى المغرب قد ريش بريش عُقاب.

ثم تأثير ريشة العنقاء لها أصل في الأبستاق. فهناك يسأل «زرَتُشترا أُهرا مَزدا» كيف يرد عن نفسه لعنة أعدائه، ويبطل سحرهم. فيجيبه أن خذ ريشة من ڤارنغَنا وادلك بها جسدك، ورد اللعنة إلى أعدائك. ويعلمه «أُهرا مَزداَ» أن الذي يحمل عظمة من عظام هذا الطائر القوي لا يقهره أحد. ومن يحمل ريشة منه يرعد لهيبته الناس جميعاً إلخ. وسيرى القارئ فيما يأتي أثر ريشة العنقاء في حرب «رستم» و«اسفَنِديار».

واعتبر هذا بما في القاموس المحيط (مادة: رخم) من فوائد مرارة الرخم ولحمه وزبله، وأن وضع ريشة من أيمنها بين رجلي المرأة يسهل ولادها.

للوقت وأقضي حاجتك. فَحملتهُ وحلّقتْ به ثم رفرفتْ حوالى سام، ووضعتهُ بين يديه. فرأى شخصاً قد أُفرِغَ في قالبِ الجمال، رشيقَ القدّ كالغُصن المائل، صبيحَ الوجهِ كالبدرِ الكامل. فَخرَّ ساجداً لله تعالى يُعفّرُ وجهَه في التراب، ويشكُره على ما أكرمَه به من ردّ ولدِه وقُرَّةِ عينِه عليه. وعاهدَ الله تعالى وأشهدَه على نفسه ألا يُوحشَ بعد ذلك قلبه، ولا يُضيق صدره. وأطلقَ لسانَه بالثناءِ على العنقاء لِحُسنِ صَنيعِها مع ولده. ثم انحدرَ به من ذلك الجبل كالليث المشبل. وكساه قِباءً فكان ملأه رونقاً وبهاءً وعزا وسناء. فلما رأى العسكرُ ساما قد أسهلَ مع ابنه دستان رفعوا أصواتِهم بالبشارات، وكاد الطربُ يسلَبُ عقولَهم، وأقبلوا راجعينَ إلى المدينة بالدبادب والبشائر.

المسائل التي سئل عنها زال وما ذكر في جوابها

كان «منوجهر» السلطان قد جمع العلماءَ والحكماءَ ومن تبحّر من المنجمين ليبحثوا في طالع «زال»، والتنقيب عن سرّ الفلك في أمره، وعما يؤول إليه حالُه في مُصاهرته مهراب، سليل «الضحاك» الذي كانتْ قد وقعت بينه وبين «أفريدون»، رأس سلالة منوجهر. وكان زال، أو «دستان» كما سمّتهُ العنقاءُ، قد تَعلّقَ وأولعَ بـ «روذابه»، إبنةُ «مهراب» وهو كان ينتظرُ، لزواجه منها، موافقةَ منوجهر. السطور أدناه تصف مقابلة العلماء والحكماء والمنجمين لزال، واختبارهم لبديهته وعلمه.

قال: فتصدّى «موبذ» وسأله عن اثنتي عشرة جَذبٍ بأضباعها السَمُوق، ومدَّ من أعضادها البَسُوق. قد تَشعّبَ من كُل واحدة ثلاثونَ غصناً لا يرى الفرسُ فيها زيادة ولا نقصاً. وسأله آخر عن فرسين: أحدهما أشقرُ كالنار والآخر أدهم كالقار. لا يزالان يتراكضان، يتعافيان ولا يتسابقان. وسأله آخر عن ثلاثينَ فارساً يَعرضونَ على السلطان، إذا عبروا نقصَ منهُم واحد، وإذا رجعوا فلا ناقص ولا زائد. وسأله آخر عن روضةٍ مُعشبةٍ يرفُّ نباتُها في رونق الغضارة، وتروقُ العيون بالبهجةِ والنضارة. ثم ينحى عليها ذو منجل يُنزل بساحتها مكروهَ الخُطب، ويجمع في حَصدِها بين اليابس والرطب. وسأله آخر وقال: شجرتان من بواسق الأشجار، ثابتتانِ في البحر الزخار، على كل واحدةٍ منهما وكرٌ لطائرٍ يُصبحُ على إحداهما ويُمسي على الأخرى. إذا طار من هذه تساقطتْ أوراقُها، وإذا وقعَ على الأخرى راقَ العيونَ إيراقُها. فتكونَ الأولى ناضرةٍ على الدوام، والثانيةُ ذابلةً مدى الأيام وسأله آخرٌ عن بلدةٍ طيّبةٍ حصينة في ذُروةِ جبل، تركها الناسُ وعمدوا إلى أرضٍ تنبتُ القتادَ، فأرسوا بها الأوتاد. وبنوا بها الدورَ، وشيدوا فيها القصور. وتناسوا تلكَ البلدةَ الطيبة. فبيناهم كذلك إذ خَسفتْ بهم أرضهُم، وقامتْ عليهم القيامة، وحالفتهم الحسرةُ والندامة. فقيل لزال: إن أبرزتَ هذه الكنوز، وأوضحتَ هذه الرموز كُنت العالِمَ الخبير، وأثرتَ من الترابِ العبير فأطرقَ ساعةً ثم رفعَ رأسه وأعادَ تلك المسائل. ثم قال: أما الشجراتُ الاثنتا عشرة فهي عُدة الشهورِ مع الأيام، على تَعاقُب الأزمنة والأعوام. وأما الفرسان فهما الملوان يتعاقبان ولا يتسابقان. وأما أعدادُ الفرسان، وما يظهرُ فيها من النقصان، فذاك إشارةٌ إلى نُقصان الشهر وأنه تارة يكون تسعا وعشرين، وتارةً ثلاثين. وأما الشجرتان اللتان عليهما يُعشعشُ الطائر فإن العالَم من وقت حلول الشمس في بُرج الحمل إلى أن تبلغ إلى الميزان يتبرج كالخريدة المعطار، في حُلي الرياحينِ وحُلل الأزهار. ومن حين حُلولها العقربُ إلى أن تحُلَّ الحوتُ يَقبَعُ بين أسحاق الحِداد، وأطمارِ السواد. فالشجرتان كنايتان عن عضدى الفلك الدوّار، والطائرُ عبارةٌ عن الشمس الباهرة الأنوار. وأما البلدةُ الطيبةُ فهي دار القرار، ومنزلُ الأبرار. والأرضُ التي آثروها عليها فهي الدنيا قرارةُ الأكدار، ومُعرَّس الأخطار. تُناهبُك مدارجُ الأنفاس، وتضرب في انصرامِ عُمرِك الأخماسَ في الأسداس. بينا أنتَ إلى نعيمها راكنٌ، وفي ظلالِها وادعٌ ساكن، إذ تزلزلت من تحتك، وأمطرت مكارهها من فوقك، فسمعت الأفلاك تنشدك في ذاك:

لا أنت أنت ولا الديار ديار   خفّ الهوى وتولت الأوطار

إن هذا الإنسان، وإن طاولَ الكيوان، فليسَ يَصحبُه منها غيرُ ستره تحتَ حُفرة. فإن اكتسبَ فيها الذكرَ الجميلَ، أحرزَ هنالك الأجرَ الجزيل. وإن زرعَ العدلَ والإحسان، حصدَ الروحَ والريحان. ثم إن صاحبَ المنجل كنايةٌ عن الأجل يحصدُنا كحصد النبات، فيأتي على البنين والبنات. سواء في مكروهه الشيب والشبان، والفروعِ والأغصان. قال: فلما رأى منوجهر استخراجَه لتلك الرموز الخفية والأسرار المبهمة تهلل مستبشرا وارتاحَ مبتهجا، وجلس في مجلسٍ عظيم قد فُرِشَ بالديباج والحرير، وطيِّبَ بالمسكِ والعبير. ودعا بدستان وسائر القوّاد. وتعاطوا كئوس الرحيق.

بعد حروب عديدة خاضها «زال» منتصراً لكنها حصلت في إبّان ضعف الأمة الإيرانية وتشتت حكمها وجيشها، أقبل الإيرانيون عليه يوبخونه ويعنفونه، وقالوا إنك منذ جلست موضع أبيك «سام»، وصرت بهلوان الدولة لم يطب عيش الناس يوماً واحداً، فأجابهم «زال»:

إني منذُ شددتُ وسطي بمنطقةِ البأس لم يرَ الناسُ مثلي فارساً مُطلاً على صَهواتِ الخيل. وما وضعتُ رجلي في مستنقعِ حرب، ومُعرّسِ طَعنٍ وضربٍ إلا وصارتْ أعنّةُ الفرسان أثفارا، وصدورُ الشجعان أدبارا. والآن قد انحنى شطاطي القويمُ، واستشنَّ من ظاهرِ إهابي الأديم. ونفضَ الشيبُ عليَّ غبارَه، وألبسني شعارَه. وضعُفَ كاهلي عن حَمل السلاح، وتقاعدتْ هِمّتي عن هزِّ الرماح. وقد أدركَ ولدي «رُستم» وأصبح كالنخلِ الباسق. وسأستنهضَهُ في هذا الأمر الفادح. فَسرَّ الايرانيون بذلك واشتدَّ أزرُهم. وجاءَ رُستم أباه مُتعرّضاً لأمره. فقال: إنَّ بينَ يديك أمراً باهظاً وخطباً فادحاً يُهجرُ من أجله النومُ والقرارُ. وأنتَ بعدُ رطيبُ العود، جديرٌ بالدعةِ والقُعود. فكيف أرمي بك في أنيابِ المنونِ الفاغرةِ، وأُعرّضُك لمخالبِ الخطوبِ الفاقرة. فقال رُستم عند ذلك: كيف يَليقُ بهذه الأعضادِ الشدادِ الاقامةُ تحتَ ظلالِ الترف والدلال؟



وسوف تراني إذا اشتجرتْ الرماحُ، وتصافحتْ الصفاح وفي يدي قطعةُ سحابٍ يتفجّرُ من خلالِها الدمُ، وتسعُرُ صواعقُها وتتضرّمُ، أَفلُقُ هاماتِ الأبطال، وأهجُم بها على هَجمةِ الآجال. وما أُريد الآن إلا حِصاناً كالبحرِ المائجِ والفيلِ الهائجِ وأريدُ جرزاً – كأنه الذي عناه مترجم الكتاب بقوله:

وأرعن عن ثغر الغضنفر كاشرا شَتيم المحيا فيه صَولةِ جبار
كصاعقة لو واجهتْ ركنَ يذْبُلٍ تشظّى كرملٍ في البطائحِ منهارِ

ذكر مسير الملك «كيكاوس» إلى «هاماوران»

يؤخذ من الشاهنامة أن الملك «كيكاوس» سار من «سيستان» حين بلغه أن ثائراً من العرب خرج في مصر والشام. وآثر ركوب البحر لبعد الشقة في البر فسار حتى توسط ثلاث ممالك: مصر عن يساره، وبربر عن يمينه وأمامه هاماوران ودونها البحر.
ظن بعض الكتاب من أن الثورة ثارت في مصر والشام أن هاماوران هي سورية، ولكن ليس هنا مجال للظن، ففي فارس نامه والطبري والمسعودي أن كاوس أسر في بلاد اليمن. وذكر ذلك أبو نواس في قصيدته التي يفخر فيها بقحطان على نزار:
وقاظ قابوس في سلاسلنا سنين سبعا وفت لحاسبها

قال: ثم عرض للملك كيكاوس حركة ففارق سرير الملك وخرج من ممالك إيران قاصداً بلاد الترك والصين. فعطف إلى نواحي «مُكران»، ومنها إلى بحر «زِره» إلى أن وصل إلى نواحي البربر طالباً للتغلب عليها فمانعه ملكُ البربر، واستعدّ لحربه، ولقيّهُ في عسكرٍ عظيم وجمع يُخيّل الهواءُ لكثرةِ رماحِهم كأنه بعضُ الآجام. وانسدلَتْ ذيولُ القتام انسدالَ جنح الظلام حتى لم يكد أن يرى الناظرُ يدَه، والفارسُ عنانَه. فتقدّموا فوجاً بعد فوج إلى المصاع والقراع، وأقبلوا كالأمواج المتلاطمة للدفاع. فلما رأى ذلك «جوذرز» رفعَ عمودَه وحمل في ألف فارس من الآساد المذكورين والأنجاد المشهورين ويطردهم كالغضنفر يسوق آجالا. فتفرّقتْ جموعُ البربر وأضحوا كأن لم يكُن منهم فارسٌ ولا رامح. فخرج كل من كان في مدينتهم من المشايخ والكهول وأطلقوا ألسنتَهم بطلبِ الأمانِ مُستعيذينَ بعفو السلطان، وجَعلوا يعتذرون إليه، ويتضرعون بين يديه، ويبذلونَ له الطاعةَ ملتزمينَ أداءَ الخراج والجزية. فقبل الملك منهم ذلك، وفارقَ تلك الناحية، وسار حتى وصل إلى نواحي المغرب وجانب جبل قاف، يتلقى الناسُ في كل ذلك مواكبَه مُطيعينَ خاضعين. فلما رأى سُلوكَهُم سبيلَ الطاعة وتوسلَهم إلى إرادتِه بالخضوع والضراعة صرَف عنهم عنانَه، وأقبلَ في عساكره إلى «زابلستان» قاصداً ضيافةَ رستم بن دستان. وأقام فيها شهراً من الزمان يشتغل يوماً باللهو والطرب ويوماً بالصيد والطرد. قال: ثم لم يمض إلا قليل حتى امتدّت يد التزلزل إلى قواعد ذلك العلم الفرد، ونبتَ القتادُ على أرجاء حديقةِ الورد، وعاد جَناحُ دولته مَهيضاً. وإن وراء كل يفاع حضيضا. وإذا استوت الشمس جنحت للزوال ولا بد من النقصان بعد الكمال وذلك أنه خرج رجل من العرب أصيل يسمى «دُربيس» من نواحي الشام ومصر، ورفع راية وخلع ربقة الطاعة لـ «كيكاوس»، وأعرضَ عن خدمته، وادّعى الأمرَ لنفسه. فلما بلغ كيكاوس أنه ظهر له شريكٌ ينازعُه في السلطنة أمرَ بضرب الكُوسات، وارتحلَ عن «نيم روز». فجاشتْ السيوفُ في أغمادِها، واستعدّت الجيوشُ والعساكرُ واحتشدتْ. ثم قادها من البر إلى البحر، وأعدَّ من السُفنِ والزواريق ما يفوتُ العدّ والحصر. ثم ركبَ البحرَ في جميعِ عساكره. وإنما حادَ عن طريق البر لبُعده. فإنه كان مسافةَ ألف فرسخ. فسار في البحر حتى وصل إلى مدينةٍ من يسارها مصر، ومن يمينها البربر، وقُدّامها البحر. وكانتْ هذه المدينة تسمى «هاماوران». في كل صوب منها عسكر عظيم. فحين بلغهم إقبالُ «كيكاوس» وخروجُه عن البحر اجتمعوا وصاروا يدا واحدة فبلغوا عدداً طبقوا الأرض حتى أثاروا السباعَ عن أخياسِها، والظباءَ عن كناسِها، وكادوا يَضيقون مَجال العُقبان في جوّ السماء، ومَسبح الحيتانِ في قَعر الماء. وأقبل كذلك «كيكاوس» بجُنوده وجُموعه فخُيّل أنَّ طِلاعَ الأرضِ مُطبقٌ بالجواشن والدروع، وأن السماءَ لكَثرةِ الأسنةِ تنثرُ أجرامَ النجوم. فتزاحفَ الفريقان، وبرزَ «جُرجين» و«فرهاذ» و«طوس» من أحد جناحي عسكر كيكاوُس، وبرز «شيذوش» و«جيو» و«فولاذ» من الجناح الآخر فأشرعوا الأسنة، وأرخوا الأعنة، وطفقوا يقارعون بالدبابيس الحاطمةِ والعُمدِ القاصمة. وتقدَّم كيكاوس من القلب إلى المعترك فاحمر البأس وحمى الوطيس. فلما رأى ملك «هاماوران» قُوّةَ الإيرانية ألقى السلاحَ وطلبَ الأمان، وتقبّلَ خَراجاً ثقيلاً، والتزمَ أن ينفذ إلى الملك كياكوس أسلحتَهُ وخيلَه وتاجَه وتَختَه، على أن يخلّي كيكاوس بينَه وبين بلادِه ولا يَطأها بخَيله. فقبلَ الملكُ ذلك منه وصالَحهُ. فذكرَ ذاكرٌ في حضرته أن له خلفَ السترِ بنتاً أحسنَ قداً من السرو، ذاتَ شعرٍ كالمسكِ، تظهرُ كأنها جَنةٌ زاهرة، وتبدو كأنها شمسٌ باهرة. وقيل له: إنها تَصلحُ أن تكونَ قرينةً للملك. فمالتْ إليها نفسُ كيكاوس. فأمر رجلاً كافياً من أعيان حَضرتِه أن يمضي إلى ملك هاماوران، ويخطُب إليه ابنتَه، ويقول له: إن أكابر الملوك يرغبون في مصاهرتنا ويتوسلونَ إلى مواصلتِنا. وكلٌّ من لا يلتجئُ إلى ظلالِ دولتِنا من الملوك فلن يُمكنه الاستقرارُ





على سريرِ المُلك. وأنا الآن مريد مواصلتك من أجل أنه بلغني أن وراء سُتورك بنتاً تليق بِتَختنا، لطَهارةِ أصلِها وتَحليها بالخلالِ الحميدةِ والأخلاقِ المرضية. وعلى الجملة من وجد ختنا مثل ابن قباذ فقد اعتصم بخير ملجأ وملاذ. قال فمضى السفير إلى حضرةِ ملك هاماوران. فلما دخل عليه افتتحَ الكلامَ وأقرأَهُ من الملك السلام، وأدّى ما تحملُه من الرسالة. فأطرقَ مُتفكراً وقال فيما بينه وبين نفسه: إن كيكاوس وإن كان ملك البر والبحر فما لي على وجهِ الأرض غير هذه البنت. وهي أعزُّ عليّ من روحي. وإن امتنعتْ لم أطقْ مقاومته ومنازعته. ثم أقبل على الرسولِ وقال إن الملكَ يُريد أن يأخذَ مني شيئين ما لهما ثالث؛ فإني بالمالِ قويُّ الظهر، وبهذهِ المخدّرة منشرحُ الصدر. وما يبقى عليّ بعد هذين شيء. ولكن لا أُخالف أمرَه، وسأنفذُ ما يريد إلى خدمةِ تَختِه. فدعا بابنته وكانت تسمى «سُوذابه»، وذكر لها حال كيكاوس. ثم قال لها: إنه قد نفذَ إليّ رسولاً، وكتب إليّ كتاباً يخطُبك فيه، ويريد أن يُنغّصَ بذلك عيشي، ويسلبُني نومي وقراري. فماذا ترين وما رأيك في هذا الأمر؟ فقالت له إن كان ولا بد فاعلم أنك لا ترى خيراً منه ختنا. فلا تحرجن صدرك بالهم، ولا تقابل هذا السرور بالغم. فلما رأى ميلَها إلى ذلك اشتغلَ بتجهيزها ورتب ثلثمائةَ وصيفة وأربعين عمارية، وألفَ بغل، وألفَ فرس وجمل محملة ديباجاً وذهباً وأنفذها إلى حضرة الملك كيكاوس. فبهت حين رآها لما شاهد من كمالِها وجمالِها. ثم إن ملك هاماوران تمكن منه الهم لما جرى عليه من كيكاوس فشرع في الاحتيال عليه، وأرسل إليه بعد أسبوع مضى من تجهيزه ابنته يستضيفه ويقول له: إن رأى الملك أن يشرّفَ عبدَه، ويصيرَ إلى هاماوران، وينوّرها بجمال طلعته. وهو في ذلك يُضمر خلاف ما يُظهر، ويُريد أن يزيل احتكام الغير عليه ويعود إليه الحكم في بلده وولده. ففطنتْ ابنتُه سوذابة لحيلةِ أبيها وقالت لزوجها كيكاوس: ليس من الرأي مصيرك إليه. فإنهم يريدون أن يتمكنوا منك بهذا الطريق فتصير المأدبةُ مندبة. فلم يُصغِ إلى قولها وأجابَ دعوةَ أبيها، قال: وكانت لأبيها مدينة تسمى «شاهه». وهي أحسنُ بلادِهِ وأطيب ممالكه. وكانت دارُ مُلكه. فأمرَ أن تُزيّنَ وتُزخرفَ لمقدم كيكاوس. فلما دخلَها تَرجَّل له ملكُ هاماوران في جميع أُمرائه وقُوّاده، ونثرتْ عليه اللآلئُ والجواهر. قال: ودخل القصرَ وجلس على تَختٍ من الذهب نُصبَ له فيه. وقد استطابَ المدينةَ فبقي هناك شهراً وملك هاماوران يجدُّ في خدمتِهِ، حتى وثقَ به الإيرانيون واطمأنوا إليه. وكانت بينه وبين البربر مواطأة. وذلك أنه استدعاهم قبل ذلك وخمر الغدر والمكر. فبيناهم ليلة كذلك إذا هم بأصوات الكوسات والبوقات، وبعساكرِ البربر قد هَجمتْ عليهم بَغتة فقبضوا على كيكاوس، ومن أصحابه على «جوذرز» و«جيو» و«طوس». وكانت لملك هاماوران في قُلّةِ جبلٍ قلعةٌ حصينة تسامي الهواء، وتصافح السماء. فنفذ كيكاوس وأصحابه إلى تلك القلعة وسجنهم بها، وَوَكّلَ بهم مائة ألف من أعيان الشجعان وأسود الفرسان. وأمرَ فنُهبت خيمُ كياكوس وأُخذ جميعُ ما فيها من الأموال والذخائر، وفُرّقَ على عسكره. ثم نفذ عماريةً مجللةً مع فوجين من المخدّرات وذوات الخدر ليحملنَ سُوذابه ويردُدْنها إلى مُستقرّها من بيته. فلما قَدمنَ عليها ورأتهُنَّ لطَمتْ ومزّقتْ ما عليها من الثياب الخُسروانية، وجعلتْ تبكي وتقول: هلا أخذوه وقت الحرب إذ هو يمزق قلوبَهم بالطعن والضرب! ولست أريد فراقه وإن كان ترابُ اللحد مسكنَه وقرارَه. فأنهوا مقالتها إلى أبيها. فتقدَّم بإنفاذها إلى القلعة وإيداعها مع زوجها في بيت واحد.

قصة سهراب

لم يكن رستم ملكاً بل كان ناصر الملوك لشدة بأسه وشجاعته وضراوته في القتال. إنه «بهلوان العالم ومقدم العسكر وحافظ حوزة الملك». إنه، في الشاهنامة، بمقابل أخيل في الإلياذة اليونانية. في القصة أدناه نقرأ كيف وُلد ابن لرستم.

قال صاحب الكتاب: نقل عن عالِمهم العارف بتواريخ أيامهم أن رُستم بن دستان أصبحَ ذاتَ يوم مهموماً حَزيناً، فعَزمَ على الصيد، وشدَّ عليه منطقته، وملأ من النشّاب تركشه(1). وسار حتى وصل إلى حدود توران، فرأى البريةَ مملوءةً باليعافير. فتهلل وجهُه واستبشر، وحرَّكَ رخشَهُ ورمى عُدّةً منها. ثم أوقدَ ناراً، وقَلَع شجرةً كالسفود، وعلق عليها واحداً منها فشواه وأكله حتى أتى على آخره. واستلقى ونام، وأرسل فرسه يرعى في روضة كانت هناك فإذا بسبعةٍ أو ثمانية من التورانية عابرين على الطريق. فرأوا أثر حوافر الفَرَس، فتبعوا الأثر إلى واد هناك، فرأوا فرساً يرعى وليس عنده أحد، فأحاطوا به حتى أمسكوه. وقادوه إلى بلد لهم هناك يسمى سِمِنجان. فانتبه رُستم فطلب الفرسَ ليركبه فلم يره. فاهتم لفقده ونهضَ مسرعاً وجعل يدور في طلبه حتى وقع إلى تلك المدينة. وأخبر ملك هذه المدينة بمجيء رستم بن دستان، وأن فرسه قد ضاع منه في متصيده. فاستقبله الملك وأمراؤه. وحين اجتمع به استخبرَه عن أمره، واستفظع الحالَ واستعظَمَهُ، وطيب قلبَه. وقال:



نحن في هذه المدينة عبيدُك، ونفوسُنا وأموالُنا بحكمك. فقال: إن فرسي غاب عني في هذا المرج ولم يكن عليه لجام ولا عذار. ولقد تتبعتُ أثرَه فوجدتُه قد انتهى إلى هذه المدينة. فإن طلبته ورددته عليّ التزمت بذلك المنّةَ منك، وإلا ضربتُ رقاباً كثيرة بسببِ ذلك. فقال له صاحب سِمِنجان: من يتجاسر على أن يُمسكَ فرسَك؟ فكن ضيفَنا اليوم، ولا تحتد. فإن الأمر لا يكون إلا كما تريد. فتبيتُ هذه الليلة طيب القلب، مُقبلاً على الطرب ومُلقياً عنك أسبابَ الهمّ والتعب، ثم إن فرسك لا تخفى آثارُ حوافره. فَسُرَّ رستم بكلامِه، ورأى موافقَته على ما دعاه إليه. فصار إلى داره. وسُرَّ ملك سمنجان بإجابته له. فأنزله في قَصره ووقفَ بين يديه، وأحضرَ لديه الأمراءَ والأكابرَ من أهل بلده. وحضرت السقاةُ الصباح والمغاني الملاح، واندفعَ في الشرب. فلما ثَمِلَ وغلبهُ النومُ أدخلوه إلى موضع أعدُّوه لمنامه. فنام وعند رأسه المسك وماء الورد. فلما مضت طائفةٌ من الليل سمع حساً فإذا بباب المكان الذي هو فيه قد فُتح ووصيفةٌ قد دخلت وبيدها شمعةٌ من العنبر فوضعتْها عند رأسه، وإذا بامرأة قد خرجت من وراء الستر كأنها فلقةُ قمر، متبرجةٌ بين الحليّ والحلل، ذات حاجبين كقوسين، وغديرتين تضطربان كحبلين، وكأنها من فرط اللطافة والملاحة صُوّرت من روح. فلما رآها رستم بَهُتَ لما شاهدَهُ من حُسنها وجمالها فقال لها من أنت؟ وما اسمُك؟ وما الذي أخرجكِ في ظلام هذا الليل؟ فقالت أنا ابنة ملك سِمِنجان. وما لي فوق الأرض شبيه، ولا رأى أحد وجهي ولا سمع أحد حسي. وقد بَلَغَتْني على لسان السمَر أحوالَك وأحاديثَ رجوليتك وشجاعتك. وذكرتُ ما اختص به رستم من الخلالِ الشريفة والأخلاق الحميدة. وقالت: وقد شغفني حبُّك. وكنتُ طالبةً للاجتماع بك. وقد قدّر الله تعالى مصيرك إلى هاهنا. وعرضتْ نفسَها عليه وقالت: أريد أن يرزقني الله تعالى منك ولداً يكون مثلك في قوّتك ونجدتك. وأنا ضامنة أن أدوّخ سِمِنجان لك، وأَرُدُّ فرسك عليك. فعقدَ عليها رستم برضاها وبات معها تلك الليلة. فلما آذنت الشمس بالطلوع أعطاها خِرزةً كانت مشدودةً على عضده، وقال لها: إن رُزقتِ أنثى فاربطيها في قرونها، وإن رزقت ابناً فشدّيها على عضده. وسيكون مثل سام بن نريمان يستنزل العقاب من الهواء، ويسامي الشمس في كبد السماء. قال: وطلع النهار وجاء الملك وخدمه، واستخبره عن نومه ومبيته، وبشره بوجدان فرسه. فتهلل وجه رستم من الفرح والسرور، وقام ومسح ظهر الرخش وأسرجه وألجمه. وركب وخرج مسروراً منشرح الصدر من جهة ملك سِمِنجان حتى عاد إلى أرض إيران. وكان لا يزال يحمده ويشكره. قال: ثم لما أتت على ابنة الملك تسعة أشهر ولدت ابناً كالقمر ليلة البدر كأنه رستم بن دستان أو سام بن نريمان. فسمّتهُ أمه سُهراب. وكان يشب في شهر ما يُشبّهُ غيره في سنة. ولما بلغ ثلاثَ سنين لم يكن هناك أحد يُقاومُه في قوّته وشجاعته. فجاء إلى أمه وقال: مالي أطول من أقراني قداً، وأوسعهم صدراً، وأشدّهم بأساً؟ ومنْ أبي وجدي وما اسمهما؟ فقالت أنت ابن رستم من شجرة دستان بن سام ونيرم. وما استعلاؤك إلا لأن ذلك البيت أصلك. ومنذ خلق الله العالم ما ظهر فارس مثل أبيك. فقال عند ذلك سهراب، مدلاً بالانتساب إلى ذلك البيت العظيم والأصل الكريم: لأجمعنَّ عساكرَ عظيمة من الترك، ولأزعجن كيكاوس عن سرير ملكه، وأقلع آثار عقب طوس من إيران، وأنقل التاج والتخت إلى رستم، وأعطف من أرض إيران إلى بلاد توران، وأنتزعها من يد أفراسياب. ومهما كان رستم لي أباً وكنت له ابناً فلا ينبغي أن يبقى على وجه الأرض صاحب تاج آخر.

(1) أصله في الفارسية تيركش أي وعاء السهم.

ذكر عشق «سوذابه» زوجة «كيكاوس» لـ «سياوخش» المذكور وقصتهما

قصّة عشق سوذابه لـ «سياوخش»، ابن الملك كيكاوس تتلاقى مع قصة امرأة العزيز التي راودت يوسف عن نفسه. لكن كيد سوذابه لا يقف عند حدّ انكشاف أمرها، بل تستمر فيه فصولاً لم نرَ متسعاً لنشرها هنا.

قال: ولما رأتْ سُوذابه محاسنَ سياوخش، وكمالَ جماله عشَقَتْه حتى خرجَ من يدِها زمامُ اختيارها، وفُجِعتْ بنومها وقرارها. فأرسلتْ إلى سياوخش تلتمس منهُ الدخولَ إلى دارِ أبيه، والحضورَ لزيارة ذواتِ قرابته. فقال سياوخش في جوابها: إنه لا سبيل إلى ذلك. ولستُ ممن ينخدعُ بمكرك واحتيالك. فدخلت سوذابه على كيكاوس، وأطلقتْ لسانَها بالدعاء له والثناء عليه، وقالت: أيها الملك لا تَمنع سياوخش عن الدخول إلى ما وراء الحجاب، فإن أخواته قد اشتقنَ إلى لقائه، ولا صبرَ لهُن عن الاكتحالِ بجماله. وإنه إذا دخل إلينا حملناهُ على رءوسنا، ونثرنا تحت قدمهِ أرواحَنا ونفوسَنا. فدعا كيكاوس بولده سياوخش، وقال: إن لك وراء الستر أخواتٍ يشتقنَ إليك، وسذوابه لك مثلُ أمك. فإن الأجانب إذا سمعوا بذكرك هشوا إلى لقائك. فكيفَ من كان دمه ممتزجاً بدمِك ورَحِمَه متصلةً برحِمك؟ فادخلْ عليهن وفرحهن بذلك. فلما قال له أبوه هذه المقالة تعجّبَ من كلامه، وفكر في نفسه ساعة.



ثم قال، بعد أن علمَ أنه إذا دخَلَ حُجرةَ النساء بُلِيَ من سوذابه بكل بلية: إن الملك أهّلني للتاجِ والتّخت، وعقدَ لي على إقليم من الأقاليم فينبغي أن يجمع لي الموابذة والأكابر الذين حنكتهم التجارب ونجدتهم النوائب حتى أتعلم منهم مطاردة الأقران في حالتي الكفاح والطعان، وآخذ عنهم مراسم الملوك حالة الجلوس للناس على تَختِ السلطنة، وآيين[1] القعود في مجلس الأنس والخلوة. وإذا كان كذلك فما أصنعُ في حجرة النساء؟ وماذا يُعلِّمْنني من مَحاسنِ الآداب؟ فَسُر الملك لما أشعر به من كلامه من الرأي والعقل، واستحسنَ ذلك منه، قال له: ولكن لا يَدخُلن قلبك من ذلك شيء، وادخل إلى أخواتك وسوذابه التي هي بمنزلة أمك. فقال سياوخش عند ذلك: أبكر غداً إلى خدمة الملك، ثم أمتثل ما يأمر به. وخدم وخرج.

قال: وكان على باب حجرة النساء رجل موصوف بالعقل الكامل، والرأي الثاقب يسمى «هِرزبَد» وهو يتولى حجبة النساء. وكانت بيده مفاتيح حجراتهن، فدعاه «كيكاوس»، وقال: إذا طلعتْ الشمس غداً فانطلق إلى خدمة «سياوخش»، وانظر ما يقوله، وأشر على «سوذابه» أن تنثر عند دخوله النثارات، وكذلك أشر على أخواته وسائر الجواري بنثر الزَبَرجدِ والعِقيان، والمسك والزعفران.

قال: ولما أصبح سياوخش ركب إلى خدمة الملك، ودخل عليه وسجد له فأكرمه الملك، وجعل يُسارُّه. فلما فرغ من محادثته دعا بهرزبَد، وأشار إلى سياوخش بأن ينهض معه إلى دار النساء. فقام وهو يرتعد خوفاً مما يعرفه من كيدهن ومكرهن. ثم تجاوز السترَ فَتَلقّتهُ الوصائف يَنثُرن الذهبَ والمسكَ والزبرجد والعنبر تحت قدمه. ورأى أرض المكان مفروشة بالديباج، وسماءه مزينة باللؤلؤ الشاهي. وراى وصائف بأيديهن أقداح العِقيان، وقيانا مكللات بأكاليل الزبرجد والمرجان. وكأنّ تلك الساحةَ جنةٌ من الجنان محتويةٌ على الحوريات الملاح، والوصائف الصباح. ولما توسط الإيوانَ رأى تختاً من الذهب مُرصعاً بالفيروزج والزبرجد، وعليه سوذابه معتصبة بالتاج كأنها الشمسُ الطالعة، وعلى رأسها وصائفُ قد اصطففنَ كأنهن أشجار سِرْوٍ على حافات حديقة ورد. ولما وقعت عينها على سياوخش نزلت من التخت فاستقبلته، ثم خدمته وعانقته وأخذت تقبل عينه وتشم خدّه زماناً طويلاً. وجعلت تدعو له وتنثي عليه. فعلم سِياوخش أن ذلك ليس كمحبة الأمهات والأولاد، وأنها على غير طريقةِ السُداد. فانصرفَ عنها ودخل حجرة أخواته فأكرمنه وأجلسنه على تخت من الذهب. ومكث عندهن ساعة ثم خرج وجاء إلى أبيه. فسايله عما رآه فقال: إن الله عز وجل لم يمنعك شيئاً من المحاسن، وجعلك أكثر من الملوك السالفة روعة وجلالا، وأوفرهُم كنوزا وأموالا. فسر الملك بما قال. وأمر فزين المجلس، وقعدوا يشربون على أصوات القيان، وأغاريد المسمعات الحسان. ولما ثمل كيكاوس قام ودخل إلى دار النساء، وسايل سوذابه عن سياوخش وما تفرّست فيه. فأثنت عليه، ووصفته بخلاله الحميدة، وسيره المرضية. وذكرت له أنها راغبة في تزويجه إحدى بناتها دون بنات أعمامه. فوافق ذلك رأي الملك.

ولما كان من الغد جاء سياوخش إلى خدمة أبيه فسارّه في شيء. ثم قال له بعد المسارّة: إني أتمنى على الله عز وجل أن يكون لك ولد تُسرُّ به كما أُسرُّ أنا بك. وقد فهمت من كلام الموابذة وأصحاب النجوم أنه سيخرج من ظهرك ملك يطبّق الشرقَ والغرب صِيتُه، ويملأ الحزنَ والسهل ذكرُه.



فاخترْ واحدةً من بنات عمّيك «كي بشين» و«كي أرش»، ومخدراتهما وغيرهن من ربات الحجال. فقال: أنا عبدك. ومن أشرت بها عليّ امتثلت أمرك، ولم أخالف رأيك. ولا ينبغي أن تسمع سوذابه من ذلك بشيء فإنها لا ترضى به. ولست أريد أن يكون لي معها كلام، ولا إليها دخول. فتبسم الملك عند ذلك وهو لا يشعر بما انطوى عليه التبن من الماء، وتضمره سوذابه من الداء. وقال: لا بأس عليك فإن الأمر موكول إلى اختيارك. ولا يكون حديثها معك إلا عن صفاء المحبة وخلوص الشفقة. قال: فخرج سياوخش وهو وَجِلٌ من مُكر سوذابه. وعلم أن إشارة أبيه عليه بالتزويج صادرة عن سوذابه مكراً وخبثاً.

ثم إنها جلستْ من الغد على تختها، واعتصبت بتاجها، وأمرت المخدّرات أن يبرزن من كِلَلهن مُتزيناتٍ في حِليهن وحُللهن. وأمرت هِرزَبد الموكل بحفظهن بالمصير إلى سياوخش واستدعائه. فحضر ودخل فقامت له وأجلسته على تخت الذهب، وقعدت إلى جانبه. ثم قالت له: أنظر إلى هذه الشموس الطالعة والأقمار الزاهرة، وأعلمني بمن يقع اختيارك عليها منهن. فتأملهن زماناً ثم انصرفن إلى حجرهن، وكل واحدة ترجوه وتحسبه في بختها. ثم قالت له سوذابه: مالك لا تعرف عن مقصودك ومرامك، وتخبرني بمن وافقك منهن؟ فلم يجبها سياوخش وسكتَ متحيراً في أمره، وقال في نفسه: لأن أندب على نفسي وأبكي عليها خير من أن أتزوّج من بنت العدوّ. وغير خاف ما صنع أبوها دربيس ملك هاماوران بأكابر إيران. وسوذابه من بناته وهي، لا محالة، لا تريد بنا الخير، ولا تضمر لنا إلا الشر. ولما رأت سوذابه سياوخش ساكتاً لا يجيبها أماطت عن وجهها نقاب القصب، وقالت: إن قبلت مني ما أقول، وعاهدتني على ذلك زوّجتك من بناتي بنتاً تقوم بخدمتك كما تقوم الأَمَة. حتى إذا فارق الملك هذه الدنيا تكون أنت القائم عليّ، والكافل بأمري، والذائد للشر عني. وها أنا بين يديك، وكل ما تريد مني فأنت ممكن منه. ثم اطّرحت قناع الخفر، وأخذت برأس سياوخش وقبلت وجهه. فتورّست وجناته وجلاً بعد أن تورّدت خجلاً، واستعاذ بالله من الشيطان، وقال في نفسه: كيف أدنو من السم القاتل، وأقابل بغير الوفاء إحسان الوالد؟ وأخاف إن جابهتها بالرد، وخاشنتها في القول، أن تحتال عليّ بسحرها فتفسد قلب الملك عليّ. فالأولى أن ألاينها، وأجانب مخاشنتها. فقال لها: إنك، مع ما خصصت به من الجمال الرائع والحسن البارع، لست تصلحين لغير الملك. وأما أنا فتكفيني ابنتُك. وأعاهدك على ألا أعدل إلى غيرها. فصممي على هذا عزمك، وخاطبي الملك فيه. وأما ما ذكرت من ميلك إليّ فإنك يا ملكة النساء! عندي بمنزلة الأم. فينبغي ألا يخرج هذا الكلام من تحت الستر، ولا يطلع أحد على هذا السر. قال: فلما دخل عليها كيكاوس بشّرته بوقوع اختيار سياوخش على ابنتها. فسر الملك بذلك، وأمر ففتح أبواب الكنوز والذخائر، وأعدّ لسياوخش من كل جنس منها كثيراً، وأضاف إلى ذلك الطوق والتاج والخاتم والسوار، في جملة ما يصلح للملوك. ففرحت سوذابه بذلك، وتزينت من الغد، وجلست على التخت، ودعت سياوخش. وقالت له: إن الملك قد أعد لك ما لم تسمع به أذن، ولم تقع عليه عين. ثم باحت بسرها، وصرحت في مراودته عن نفسه، وقالت: إني لم أزل عاشقة لك منذ رأيتك. حتى لقد أظلم عليّ النهار، وفارقني النوم والقرار. وقد مضى بي على ذلك سبع سنين. فإن أنت طاوعتني على ما أريد منك أضعفتُ لك هذه الكنوز والأموال. وإن أبيت سعيتُ في تغييرِ رأي الملك فيك، وصرفِ قلبه عنك، وانتزاعِ المُلك من يدك. فقال لها سياوخش: حاشا لله أن أذرّيَ في طاعة النفس روحي في الهواء، وأجانب سبيل الرجولية والذكاء، وأقابل صنيعَ الأب بغير الوفاء. وأنت زوجة الملك، وشمس العشيرة، ولا يليق بك التعرّض لهذه التهمة والريبة. فاغتمت عند ذلك واغتاظت فشقت ثيابها، وخمشت وجهها، وصاحت صيحة طن بها الإيوان، وسمعها الملك في مكانه. فنزل عن تخته، وأتاها فتلقته وهي تبكي. وقالت: إن سياوخش راودني، وقال: لا أريد سواك من النساء. ولما أبيتُ قابلني بهذا الجَفاء، فمزّقَ ثيابي، وألقى التاج من رأسي. فأطرق الملك، واشتد غضبه، وقال: إن صح هذا عنه فالواجب أن يقطع رأسه. ثم أمر بإخراج جميع من كان في الإيوان. وجلس وحده ودعا بسياوخش وسوذابه. ثم أقبل على سياوخش وقال: إني سائلك فأصدقني في مقالك، وأخبرني بالصحة عن حالك. فقص عليه القصة كما جرت. فتصدّت سوذابه لمعارضته، وكذبته، وقالت: إنما عرضتُ عليه ما أشار إليه الملك في قضية الازدواج، وذكرتُ له ما أُعِدَّ لهُ من الكُنوز والأموال والذخائر والجواهر، وقلتُ له: إني أضعفها لك من عندي إن تزوّجتَ بابنتي. فأبى، وقال: ما لي حاجة في المال، ولا في بنتك، ولست أريد سواك. ومدَّ يدَه إليّ، وتعلّقَ بي حتى مَزّقَ ثيابي عليّ. وأنا حاملة من الملك، وأخاف أن أسقط الحمل لما نالني منه. فأفكر الملك، وقال في نفسه: ليس هذا مقام العجلة والمعاجلة بالعقوبة. والواجب التثبت في هذا الأمر، وإلجام النفس بشكيمة العقل حتى يتبينَ المصلح من المفسد، والبريءُ من المجرم. فأخذ يشم يد سياوخش وأعضاده وثيابه، فلم يجدها قد عبقت بأثر الطيب الذي كان على سوذابه وثيابها. فاهتم عند ذلك، وقال: ينبغي أن تقتل هذه المرأة، ويمثل بها. ثم ذكر أباها ملك هاماوران، وتخوّف ما ينشأ من الفتن بسبب هلاكها. فأمسكَ عن قتلِها، لذلك ولأمور أخر: أوّلها أنه ذكر أيام اعتقاله في قلعة هاماوران، وما ثبت لهذه المرأة فيها عليه من حقوق الخدمة. والثاني أن حبها كان آخذاً بمجامع عقله، ومتمكناً من سويداء قلبه. والثالث أنه كان له منها أولاد صغار، واستصعب تربيتهم بعدها. وعلم براءة ساحة سياوخش، وطهارة ذيله، فقال له: لا بأس عليك. وأسبل الستر على هذا الأمر حتى لا ينشر بين الخلق.

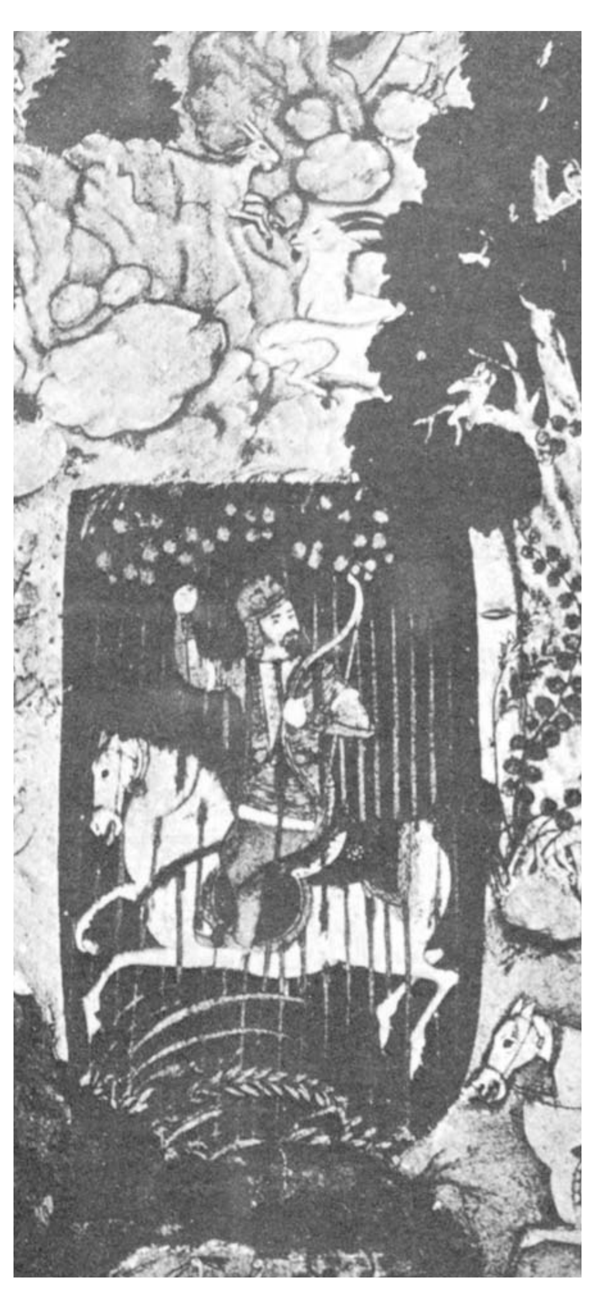
(1) آيين تعني بالفارسية آداب.



ذكر رسالة «أفراسياب» إلى «كيخسرو» على لسان «شيذه» ومبارزتهما وقتل شيذه وانهزام أفراسياب

«كخيسرو» ملك بلاد إيران هو حفيد عدوّه التوراني (التركي) أفراسياب لابنة هذا الأخير. في الموقعة الموصوف مقتبلها أدناه يتلاقى الجيشان الإيراني والتركي وعلى رأسهما الملكان. «شيذه»، الذي يصرعه كيخسرو عند انتهاء المنازلة الذي هو ابن أفراسياب، فيكون كخيسرو بذلك قد قتل خاله.

ثم إن أفراسياب حمَّلَ ابنَهُ هذا رسالة إلى كيخسرو، وأمرهُ بأن يُعيِّرَه أوّلاً ويُقَبِّح عليه صنيعَه، ثم يقول: «إن كنتُ قد جَنيتُ في قَتل «سياوخش» فما ذنب «بيران» وأخويه حتى يستوجبوا ما جرى عليهم من القتل الشنيع؟ واعلم أنك مهما نسبتني إلى الشر والغدر وعيرتني بهما فإنما تعير نفسكَ. لأنكَ شُعبةٌ مني وغصنٌ من دوحتي. فَكِلْ قتالي وهذا الأمر إلى «كيكاوس» و«جوذرز». فإن الحافد لا يُحسِنُ من أن يقاتل الجدّ. واعلم أني لستُ أقول ما قُلتُه مخافةً منك، فإني أكثر منك عسكراً، وأوفرُ عتاداً وعُدّة، بل تَحرُّجاً من قَتلِ من يكون بريّاً من الفريقين. وإن كُنتَ تأنفُ من الانصرافِ دون لقائي، وترى ذلك عاراً فصالِحْني وعاهِدني لأكونَ لك في ممالك توارن كالأب، ويكون أولادي لك كالأخوة، وأُفرجُ لك عما في أيدينا من ممالك إيران، وأنفذ إليك ما يفوتُ العدَّ والحصرَ من الخزائن والذخائر والخيل والأسلحة. وفي ذلك حَسمُ مادّةِ هذهِ الفتن. وإن كنتَ تأبى ذلك وتلقى إلى الشيطان قيادَك، وتُصِرُّ على إرادة القتالِ فابرز إليّ وحدَك لأبرزَ إليك وحدي ونتلاقى؛ فإن قتلتني فالدنيا أمامك، وعساكري عساكرُك، وأولادي أقاربُك. وإن قتلتُكَ فأمراؤك إخواني، وأصحابُك أصحابي أبسُطُ عليهم ظِلالَ الأمان وأتلقاهم بالعطف والإحسان. وإن كَرِهتَ مُبارزتي فهذا ولدي شيذه يُبارزُك على الصفةِ المذكورة. وإن كنتَ لا ترى ذلك ايضاً فموعدنا للقتال غداً عند تبلج الإصباح. يَتبارزُ المبارزون من الجانبين، وبعد غد يكون القتال العام حتى نبصرَ لمن يكونُ الظفر، وعلى أي جانبٍ يميلُ القدر» فاستصحبَ شيذهُ ألفَ فارس وأقبلَ حتى إذا قَرُبَ لَقِيَ بعضُ أصحابه بعضَ طلايع الإيرانيين فتقاتلوا فاستكفّهم شيذه ثم صاح ببعض المتقدّمين من الطلائع وقال: بلغوا كيخسرو أنه قد وصل رجل مذكور اسمه شيذه ومعه رسالة إليه من جدّه أفراسياب. فتسارعوا إلى إعلام الملك بذلك. فاستحيى الملك من مشافهته وقال: هو خالي. فأنفَذَ «قارن» إليه وأمرَهُ بأن يبلغه سلامه، ويسمع رسالته، ويعلمه بها. ففعل «قارن» ذلك، وعاد بما سمعهُ منه من الرسالة وعرضَها على الملك. فَتبسّمَ وقال: «إن أفراسياب قد قَرعَ سِنَّ الندم على عُبور «جيحون» وهو يريد أن ينفلتَ من حبالتنا بالحيلة والخديعة فجاءَ يُفزعُنا بكثرةِ جُنوده وجُموعه، وأرى أن أخرُجَ إليه بنفسي فأبارزه». فمنعَهُ أصحابُه من ذلك وقالوا: «لا ينبغي أن يُغَرَّ الملكُ بكلام هذا الساحر وينخدعَ لاحتيالِه ويلقي بنفسه إلى التهلكة. وأما مبارزةُ شيذه فإنك إن قتلته فغاية ما فيه أن ينقُصَ فارسٌ من الترك، وإن أُصيب الملك، وحاشاه، من ذلك بمكروه فمن يسدّ مكانه من الكيانية؟ ومن يتحلى بتاج الملك ويتسنم سرير السلطنة؟ فعند ذلك فلا يبقى من ممالك إيران عين ولا أثر، ويأتي القتلُ والأسرُ على أهلها فلا يبقى منهم أحد. بل الرأي أن تُجيبَهم إلى الصُلح وتقبلَ منهُم ما يبذلون من الخزائن والأموال، وتَستردَّ منهم البلادَ التي كانت لنا». فاستصوبَ جميعهُم هذا الرأي، وتراضوا به إلا رُستم فإنه لم يوافقهم على ذلك، وأبى أن يكونَ غير السيف فيصلاً. فسكتَ الملكُ ساعةً ثم قال: ليس من الرأي أن نرجعَ من وجهنا هذا إلى إيران غير مُوفين بما أبرمناه من العُهود والمواثيق في الأخذِ بثأر سياوخش. وإذا فعلنا ذلك فبأي ناظر نبصر وجه كيكاوس، وبأي شيء نعتذر إليه؟ وما لكم قد ضَعُفَتْ قلوبكم؟ وفيم اصفرتْ وجوهكم بقول تركي خدّاع جاءنا يزعم أنه يطلب مبارزتنا؟ ثم قال: «إن شيذه هذا فارس شجاع قد ألبسَهُ أبوهُ سلاحاً من السحر والشر والحيلةِ والمُكر ليس يُطيق أحد منكم مقاومتَه ومبارزتَه، ولا يُؤثرُ سلاحكم في عدته وجننه. وليس أحد غيري يتمكن من الوقوف قدّامه، ولا ينبغي أن يكون قرن حافد أفريدون غير ابن «كيقباد». وإني إذا بارزته فَجعتُ به أباه أفراسياب كما فجع هو كيكاوس بسياوخش». ثم أمر قارن بأن يبلغ شيذه جواب رسالة أبيه، وقال له: قل له ليقول لأفراسياب إن المطال بالحرب قد طال، وما هذا من عادة الرجال في القتال. ولا حاجة بنا إلى أموال جمعتموها من الظلم والعدوان، واكتسبتموها من البغي والطغيان. على أنها مع رجالك وتختك وتاجك صائرة إليّ أن ساعدتني السعادة. وأما ما ذكرتَ من مبارزتي لشيذه فهو غدا ضيفي عند الصباح، وسيرى آثارَ سطوتي عند الكفاح. وإذا ظفرتُ به يكون ما أمرت به من تبارز المبارزين من الجانبين على الخصوص ثم يكون بعده القتال بين الجمعين على العموم. فامتثل «قارن» الأمر، وبلّغ شيذه ذلك فعاد إلى أبيه فبلّغهُ جوابَ كيخسرو. فَعَظُمَ عليه وانزعجَ له وتذكّرَ المنامَ الذي كان قد رآه فيما مضى من الزمان، على ما سبق ذكره في موضعه، وأمر شيذه بأن يمسك عن القتال يومين وبألا يبارز كيخسرو، فلم يَطِعْه. ولما أصبحَ لبِسَ عدّته وركِبَ ودفَع عَلَمهُ إلى فارس آخر، وأقبلَ حتى دنا من عسكر

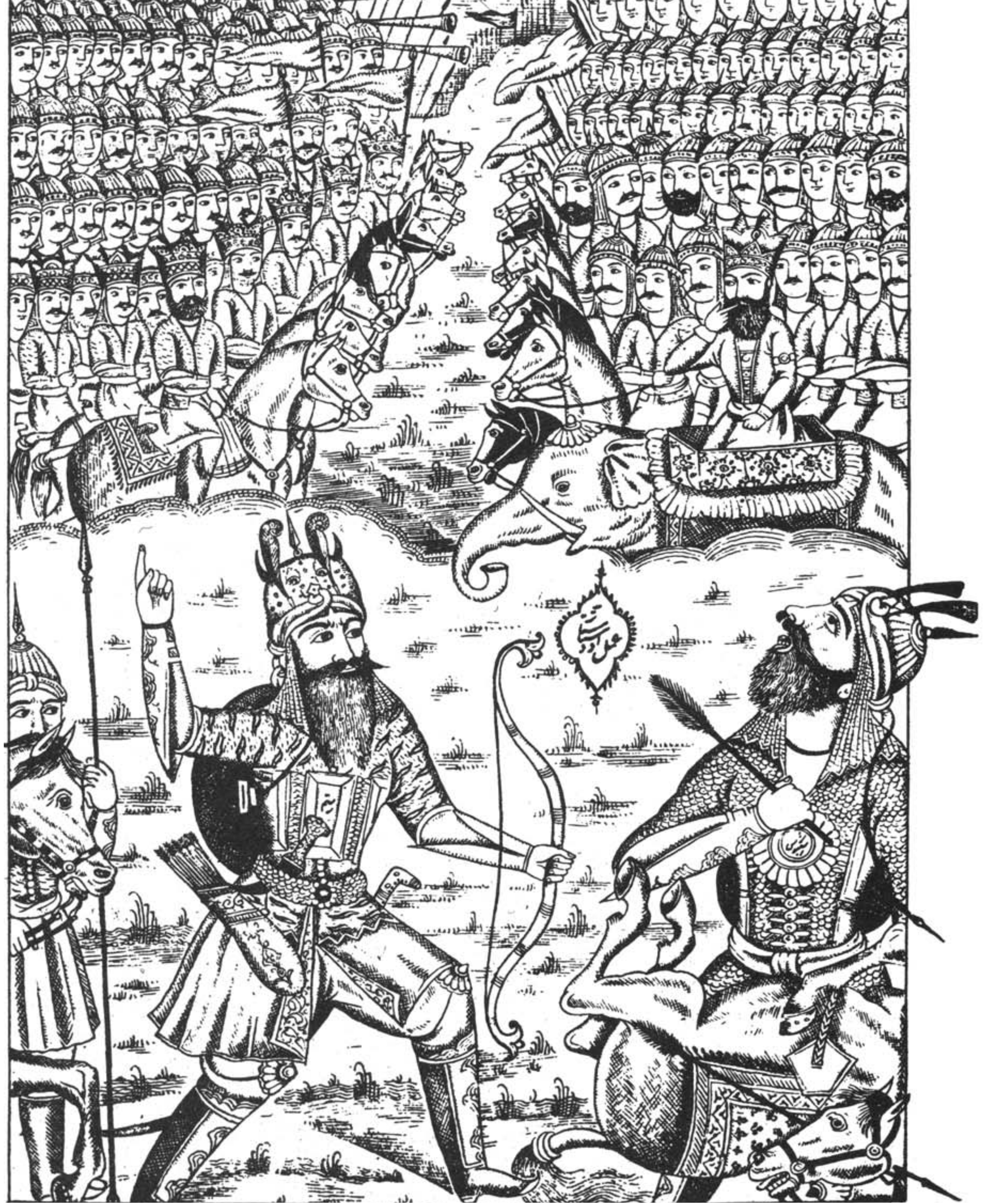


إيران. فلما أعلم الملك كيخسرو بذلك ظاهر بين جُنّنه ورَكِبَ ودفعَ عَلَمه إلى رُهّام بن جوذرز، وأمرَ عساكِرَهُ بحفظِ مَواقفِهم وملازمةِ مواضعِهم، وركل فرسه بِهزاد، وبرز إلى قرنه. فتوافقا على أن يعدلا عن الطريق وينحازا إلى مكان بعيد من الصفين، وتحالفا على أن الغالب منهما لا يتعرّض لحامل راية صاحبه بسوء، وذهبا إلى موضعٍ خالٍ في سَفح جبل فتطاعنا إلى أن استوى النهار، وتقصفت رماحهما فَعدِلا إلى العُمدِ وتضاربا بها زماناً طويلاً. ثم إن شيذه لما قاسى شدّةَ مِراسهِ وذاقَ مرارةَ بأسِه وشاهد قوةَ بطشِه دَمَعتْ عينُه وخابَ ظنُّه وعلِمَ أن في طِينةِ الرجل قِوىً إلهية وأن معه سعادةً سماوية. فداخَلَهُ الرعب. وقد عَطِشَ فرسه حتى كاد يتلف. فاحتال وقال: أيها الملك إن الرجال كثيراً يتطاعنون ويتضاربون. وإنما أريد أن تترجل حتى نتصارع. فقال الملك: إني لم أسمع أن أحداً من الملوك الكيانية قاتل راجلاً. ولكن إذا كانت نفسك تميل إلى ذلك فلا أخالفك». فنزل بعد أن مَنَعه رهام، وسلم فرسه إليه. ونزل شيذه، وتصارعا كأنهما فيلان يتصاولان أو جبلان يتناطحان. ثم غلبه كيخسرو وأخذه ورماه إلى الأرض حتى تناثر فقار ظهره، فاستل خنجره وشق صدرَه ثم رَقَّ له فتنفسَ الصعداء. وعادَ وركبَ مُوجعَ القلب، وقال لرهام: «إن هذا الفارس الخفيف الرأس كان خالي، فأشفقوا عليه، واعملوا له ناووساً على آيين الملوك». فبادر حامل راية شيذه إلى الملك وسجد له وسأله الأمان فآمنه، وقال: بلغ إلى أفراسياب ما جرى على ولده.

وكان أمراءُ الأتراك ينتظرون رجوع شيذه فأتاهم ناعياً له فشق أفراسياب عند ذلك الثياب، وأخذَ يذرفُ من محاجرهِ الدماء، وينتُف لحيتَه البيضاء. ولما كان الغد إصطفَّ الفريقان فخرجَ قارن وكُستهم من الإيرانيين وخرج جُهن بن أفراسياب من ذلك الجانب فتناوشوا الحرب من أوّل النهار إلى وقت الغروب، ولم يتحرّك الملكان من موضعهما. ولما غابت الشمسُ رجع كلا الفريقين إلى مضاربهم وباتوا طول ليلهم في تدبير الحرب.

ولما طلعت الشمس من اليوم الثالث، وكان طُلوعها من بُرج الثور، التقى الجمعان، وكانت وقعةً لم يُسمع أن مثلها كان على وجه الأرض. ثم أن الدبرة وقعت على التورانيين، وكثر فيهم القتل. ولما ألقت الشمس يدَها في كافر جاء كرسيوز أخاه أفراسياب فصادفه قد خاض غَمرةَ الحرب بنفسه، فاستكفّه. فانصرفَ بمن معه إلى مخيمه، واحتال للهرب من ذلك المكان، وأمرَ مُناديه أن يقول: إنما نَنصرفُ لهجومِ الظلام، وسترونَ صنيعَنا بكم في غد. ولما أظلم الليل أركب عشرة آلاف من الفرسان على رسم الطليعة وقال: إذا علمتم مني بعبور الماء فبادروا العبور ورائي. ثم ركب في أصحابه ومن بقي من أولاده وخواصه وعبر جيحون. وتتابعت خلفه بقايا العسكر.

ولما طلع الصبح جاء البشير إلى الملك كيخسرو بانهزام





أفراسياب وتخليته الخيم قائمة بحالها، والأثقاف باقية في مكانها. فجلس على التخت متعصباً بالتاج، ودخل عليه الملوك والأمراء يهنئونه بالفتح (والنصر فأمر بانهاء الحال إلى كيكاوس فكتبوا إليه كتاب الفتح) وذكروا فيه ما جرى على التورانيين من القتل والأسر، وأنهم قد عبروا الماء منهزمين، وأدبروا على إقبالهم نادمين.

وأما أفراسياب فإنه اتصل بابنه قراخان فتشاورا. واتّفقتْ آراؤهم على أن يرجعوا وراءهم وينزلوا من وراء الشاش في موضعٍ حَصين. حتى إذا أتاهم كيخسرو قاتلوهم على قُوّةٍ ومنعةٍ. ففعلوا ذلك وساروا إلى مدينة يقال لها كُل زرّيون فأقام بها أفراسياب ثلاثة أيام حتى استراح من وعثاء السفر وما لاقاه من المشاق والتعب. ثم رحل وسار إلى أن نزل في جنة «كنك»(1) التي هي دار ملكه ومستقر تخته وأقام بها إلى أن هجم عليه كيخسرو وعلى ما نذكره.

(1) إسم مكان.

ذكر ما جرى بين «إلياس» ملك الخزر وبين «قيصر»

كان «كتشاسب» قد طلب من أبيه الملك «لهراسب» أن يوليه على إيران بعد رحيله، لكن أباه رفض طلبه، وهذا جعله يقصد بلاد الروم فقيراً لا يملك شيئاً. واتفق أن حضر يوماً إلى احتفال أقيم لتختار إبنة القيصر، واسمها «كاتايون»، عريساً لها من بين الحاضرين، فاختارته هو كشتاسب. وإذ أظهر عن شجاعة وبأس قرّبه القيصر إليه.

قال: وكان إقليم الخزر أقرب الأقاليم إلى بلاد الروم. وكان ملكهم «إلياس» ابن الملك «مهراس». فكتب إليه قيصر كتاباً يبرقُ فيه ويرعُد حتى كأنه قَطّر بقلمِه دماً، وقال: إنكَ قد استوليتَ على ممالكِ الخزر في هذه المدّة المديدة، وقد انتهتْ الآن أيامُ استبدادك بها. فنَفِّذْ إلينا الخراجَ والحَملَ ورهائنَ من أولادك. وإلا فـ «فرّخ زاد» يسير إليك، ويُدوّخ بلادك، ويملك تختك وتاجك. فاغتاظ إلياس حين قرأ الكتاب، وأرسل إليه يقول: إنا ما سمعنا قبل اليوم بكل هذه الرجولية والشجاعة في الروم. وأنت أما ترضى، إذا لم أطلب منك الخراج، أن تنجو مني رأساً برأس؟ وأراكَ قد تِهتَ وأُعجبتَ بنفسك منذُ استأمنَ إليك هذا الفارس. وهذا الرجل الوحيد ولو كان جَبَلَ حديد فليسَ إلا من حبالاتك وأشراكك التي نصبها الشيطانُ لهلاكك. ثم لا تُجشِّمهُ النهوضَ إليّ فإني لا أتأخر عن المسير إليك. وبَلَغَ جوابُه هذا إلى أهرن وميرين فأرسلا إلى قيصر وقالا: إن إلياس ليس كالسبع والثعبان. فاحذر أن يخلِفَ ظنك «فرخ زاد» إذا تضرّمتْ نارُ الحرب، وانتصبَ إلياس للطعن والضرب. فاغتاظَ قيصرُ من كلامهما واستحضرَ «فرخ زاد» وقال له: إعلم أن إلياس رجل شجاع مسعر يحطم الأسد ببأسه ولا يصطلي أحد بناره. فإن كنت تقدر على مطاولته وتستطيع مقاومته فأعلمني، وإن كان غير ذلك فأعلمني ايضاً لأرى رأياً آخر، وأصرفه بالرفق والمداراة عما عزم عليه. فقال له: أي حاجة لك إلى هذا التطويل والقال والقيل؟ إني إذا علوت ظهر الفرس لم أفكر في جميع رجال الخزر. غير أني لا آمنُ المخامرة من ميرين وأهرن. فَتَعاونْ أنتَ وابنُك على حمايةِ ظهري في مُلتحِم القتال. فإني بحولِ الله وقوّتِه لا أُبقي إلياس ولا جيشَه ولا تاجه ولا تخته.

قال: ولما كانَ من الغد وصل عسكرُ إلياس فأشارَ قَيصر على كشتاسب بأن يبرُزَ بعسكَره من المدينة ويزحفَ إليهم. فبرزَ بهم إلى المصاف. ولما رآه إلياس، وشاهد شدّة أعضاده وعبالةَ صَدره وكيفية كَرِّهِ وفَرِّه أرسل إليه فارساً، وقصَد أن يخدَعه ويَصرِفَه عن وجهه بمالٍ يعطيه أو ولايةٍ يجعلُها له. فأجابه كشتاسب وقال: إنك تضربُ في حديد بارد. وما أنا ممن ينخدع لك، وتؤثر فيه رِقْيَتُك.

ولما طَلَعت الشمس من الغد ركبَ عسكر الروم وجاء قيصر وعبّى الصفوف ورتّبها، فخلَّف ميرين وأهرن لحفظ الأثقال وما وراء العسكر، ووقف في الميمنة، ورتب ولده المسمى «سقيل» في الميسرة، وجعل كشتاسب في القلب. فتزاحف الفريقان والتقى الجمعان. ولما رأى إلياس كشتاسب قال لأصحابه: إنما طلب قيصر منا الخراج لكون هذا الفارس على بابه. قال: وتلاقى إلياس وكشتاسب فسدّد إليه إلياس سهماً فأخطأه، وبادره كشتاسب فطعنه طعنة أذرته عن ظهر الفرس، ثم مدّ يده وأخذ بأطواقه واجتره من بين فرسانه، وركض به إلى قيصر فسلمه إليه. ثم عاود المعترك وزحف بجموعه إلى صفوف الخزر فزحزحهم عن مواقفهم، وبدَّدَ جُموعَهم ومزقهم كُلَّ ممزق، بعد أن قَتل منهم مقتلةً عظيمة. ثم ترك الروميين في أقفيتِهم، وانصرفَ نحو قيصر فتلقاهُ قريرَ العين منشرحَ الصدر فشكرَ سَعيَه وقبّله بين عينيه. ثم انصرفوا إلى دار الملك مُظفرين مَنصورينَ. وخدمتْ الروم كشتاسب بالهدايا والتحف وأنواع المبار والخدم. ثم بعد مضي أدوار من الزمن شاور قيصر كشتاسب في إنفاذه رسولاً إلى لُهراسب ومطالبته بأداء الخراج وإيذانه بالحرب. فقال له كشتاسب: رأيك أصوب وأحكم. فافعل ما ترى.

ذكر مراسلة قيصر لُهراسبَ بذلك

قال: وكان في أصحاب قيصر رجلٌ عاقل معروفٌ بالشهامة والصرامة مذكورٌ برصانة الرأي ورزانة العقل يسمى قالوس. فأرسله إلى لهراسب وأمره أن يقول له: أدّ إلينا خراج إيران ليبقى عليك مُلكك. وإن لم تفعل ذلك نفذت إليك «فرخ زاذ» فيدوّخ ديارك ويملك بلادك. فمضى الرسول إلى لهراسب. فلما وصل أعلم بوصوله، فجلس على تخت من العاج، واعتصبَ بالتاج، ومثل بين يديه الأمراء والقوّاد سماطين. ثم أمر بادخال الرسول. فدخل وأدّى إليه الرسالة فَعَظُمَ عليه ذلك. ثم أمر بانزاله في موضع يليق بجلالة قدر مُرسلِه. وفرشوا له البُسطَ المنسوجة بالذهب، وقدّموا له الهدايا والتحف، وبَلَغوا في إكرامه وإعظامه الغاية. فلما كان الغد جاء الرسول باب إيوان الملك واستأذن فأذن له. فدخل وخلا به لهراسب وقال: أيها الرجلُ العاقل! إني مسائلُك عن أمر فلا تعدل عن الصدق فيه. ثم قال: إنا لم نسمع بكل هذه الرجولية في الروم قبل يومنا هذا. وكان ملكهم أضعف الملوك. فمن أين تجدّد الآن لقيصر هذه القوة والشوكة حتى يبلغ به الأمر إلى أن صار ينفذ كل حين إلى إقليم ويطالب أهله بأداء الخراج وقبول الجزية ويهدّدهم ويُخوّفهم سطوةَ بأسه، وحتى إنه أسرَ إلياس ملك الخزر مع جلالةِ قدره وفخامة أمره؟ فقل لي من أي جهة شَمَخَ بأنفه، واستعلى أمرُه؟ فقال قالوس: أنا كنت الرسول إلى ملك الخزر، وتردّدتُ رسولاً غير مرة إلى غير واحد من الملوك، وما سألني أحد منهما عما سألني الملكُ عنه. وقد أنعمَ الملكُ عليّ بما لا أقدر معه على مخالفته فيما يشير به. ليعلمَ الملكُ أنه اتصل بقيصر رجل يصيد الأسود بيده، ويضحك على جميع الرجال بقوّته وبطشه. وقد أصبح بين الروم كالنار على علم». وسرد عليه حكايته وقصته في قتل السبع والثعبان. فقال له لُهراسب: فبمن تُشبّه هذا الرجل؟ فقال كأنه ولدك زرير وجهاً وقداً وشمائل وشكلاً. فَسُرَّ لُهراسب وذهبَ عنهُ بعضُ ما أحاط به من الهم، وأعطى الرسول بدراً من المال وعُدّةً من الجواري والغِلمان. ثم قال: أعلم قيصر أني متأهبٌ لقتاله ومُصمّمٌ عليه. فانصرفَ الرسول.

وأحضر لهراسب زرير وقال له: إن هذا الرجل ليس غير أخيك كشتاسب. فَدَبِّرْ الأمرَ ولا تُبطِئْ، واحملْ إليه التاجَ والتخت. فإني قد وهبتُ له السلطنة، وقلّدتُه المُلك. ولا تُظهِرْ في العسكر إلا أنك خرجتَ لقتالِ قيصر». فبرز زرير في جميع أولاد الملوك والأمراء، وسار يطوي المراحل حتى وصل إلى حلب فخيّمَ في صحرائها فامتلأتْ بالخيل والرجال. واستخلفَ مكانَهُ بهرام من الذرية الجوذرزية، وركبَ في خمسةٍ من غِلمانه، ومضى إلى قَيصر في زي رسول. ولما دخل عليه وجدَ عندهُ قالوس وكشتاسب. فخدمَهُ وخدمَ جَميعَ من حَضَر من الأمراء، ولم يلتفت إلى كُشتاسب. فقال له قيصر: مالك لا تقبل على «فرخ زاذ»؟ فقال: لأنه عبدٌ أبِقٌ من الملِك لهراسب جاء إليكَ فَمكّنتهُ من خدمتك، ووطّأتَ له كَنفَك. فلم يُجبْهُ كشتاسب بشيء. ثم قال له: لهراسب يقول: إن عَدَلتُ عن طريق السُداد، ورغبتُ عن الطاعة والانقياد تركتُ المقام بأرض إيران وجعلتُ بلادَ الروم مُستقرَّ سريري. ثم اعلم أن أهل إيران ليسوا كالخزر، ولا أنا كإلياس الذي تسلطتَ على بلاده، وتمكنتَ منه. فقال قيصر: أنا على عزيمةِ اللقاء. ثم صَرَفَ الرسول وخلا بكشتاسب وقال له: لماذا سكتَّ ولم تُجبهُ بشيء؟ فقال: إني خدمتُ لهراسب زماناً طويلاً، وحالي غير خاف عليه. ثم الأَولى أن أمضي إليهم رسولاً حتى أبلغ لك فيهم ما تريد، وأبلغك ما تطلب وتروم. فقال له قيصر: أنت أعلم. فركب وأقبل إلى مخيم زرير. فلما بدا من الطريق ورآه وجوه العسكر والأمراء تلقوه رجّالة، وخدموا وسجدوا واستبشروا، وقالوا: قد انتهتْ دولة الأسى والأسف، وأقبلتْ دولةُ السرور والفرح. ثم جاء زرير فترجل وقبل الأرض بين يديه. فعانقه كشتاسب ونَزَل وجلسَ على التخت مع أكابر إيران وأمرائها. فدعا له زرير وقال له: إن أباك قد طَعَنَ في السنّ ؟ لا زلت ممتعاً بالشباب – وزَهْدَ في المُلكِ وفَوَّضَهُ إليك. وها هو قد نَفَذَ إليك التاجَ والتختَ، ورضيَ من الدنيا بزاويةٍ يعتزلُ فيها ويعبدُ الله عز وجل. ثم قَدّمَ إليه التاجَ والطوقَ والسُوارَ. فلبسها وتَسنّم التخت واصطفّ بين يديه الجوذرزيون مثل بهرام وساوه وريو، وغيرُهم من أولاد الملوك، وحيوه بتحية الملك، ودعوا له كما يُدعى للسلاطين.

ثم نفذ كشتاسب إلى قيصر وقال: إن مَقصودَكَ قد حصل. وزرير ووجوه العسكر يتوقعون منك المجيءَ وحدَك إلى معسكرهم ليعاهدوك ويصالحوك. فلما أتى الرسول قيصر ركب وأقبل إلى معسكر الايرانيين فرأى كشتاسب جالساً على تخت من العاج معتصباً بتاج من الفيروزج. فقام كشتاسب وتلقاه وعانقه ولاطفه. فعلم قيصر أنه سلالة الملك لهراسب، فخدمه وقبل الأرض بين يديه ثم طَفِقَ يعتذر إليه ويقضي العجب مما شاهد منه. فقبل كشتاسب معذرته وعانقه وقال له: جهز إلينا صاحبتنا التي اختارتنا فإنها تعبت تعباً كثيراً وتحملت بسببنا عناء ثقيلاً. فانصرفَ قيصرُ مطرقاً من الخجل ونادماً على ما سبق منه من سُوءِ العِشرة فَنفَذَ إلى كتايون (ابنته زوجة كشتاسب) كنزاً من الذهب وتاجاً وجواهر كثيرة وأحمالاً من الثياب وألف وصيفةٍ. وجعل على جميع ذلك فيلسوفاً ارتضاهُ لِحفظه. ونَفذَ مع ذلك إلى كشتاسب أسلحةً وخُلَعاً فاخرة برسم من عنده من الأمراء. فلما وصلتْ كتايون إلى كشتاسب ارتحل من حلب متوجهاً إلى بلاد إيران. فَشيّعهُ قيصرُ مرحلتين، ثم حلف عليه كشتاسب وردّه. وسار إلى إيران فتلقاهُ أبوه لهراسب وعانقه واعتذر إليه، وقال: إن الله تعالى كان قد قدّر غيبتك عن هذا الإقليم إلى هذه الغاية. ثم قبل التاج ووضعه على رأسه فقال له كشتاسب: أيها الملك! لا خَلَتْ منك المملكةُ ولا تَحلّتْ إلا بك السلطنة. فاعتزلَ لُهراسب، وتَقلّدَ كشتاسب المُلك. على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر مقتل رستم

إن جئنا إلى إحصاء السنوات التي عاشها رستم لنافت عن المئات، إذ هو عاصر وحمى سلالة الملوك الكيانيين جميعهم، وخاض جميع حروبهم. الكتاب الأول من الشاهنامة، وهو قسمها الأعظم، ينتهي بموت رستم.

قال صاحب الكتاب: كان عند أحمد بن سهل بن ماهان بِمَرْو رجل كبير طاعن في السن يسمى «سروا». وكان ينتسبُ إلى سام بن نَيرم. وكان حُفَظةً لأحوال آبائه وأخبار أسلافه فحَكى أنه كان لزال بن سام جارية مغنية فَحَبلتْ منه فولدتْ ابناً بَهيَّ المنظر مَهيبَ الرواء كأنه سام بن نيرم. فَسُرَّ بِهِ أبوهُ واعتدّهُ لِظَهره قُوّةً ومن تصاريفِ دَهرهِ جَنةً. فاستحضرَ الموابذة[1] والعلماء والمنجمين فحضروا بكتبهم وزيجاتهم فنظروا في طالع المولود فوقفوا على سر الفَلَك في طالِعه وما كُتبَ من هلاك أخيه على يده. فجعل بعضهم ينظر إلى بعض. ثم قالوا لزال:



أيها البهلوان الجليل! لا تَنظُرْ إلى هذا المولود بعين المحبة فإنه إذا بلغ مبلغ الرجال أهلكَ نَسلَ سام بن نيرم، وبدَّدَ شملَ هذه العشيرة، وملأ أرضَ سجستان شراً وفتنةً، ونغّصَ على كلِّ أحد عيشه. ولا تطولْ مع ذلك مدّته، وتدركه على القرب شَقْوَتُه. فعَظُمَ ذلك على زال وتَنفّسَ الصُعداء. والتجأ إلى الله تعالى وفوَّضَ أمرَه إليه، واعتصمَ بحُسن الظن فيه، وسماه شغاذ. وكان يُربّيه حتّى شبَّ فَنفذَه إلى مَلك كابل فترعرع عِندَه وصارَ كالنخلِ الباسق والليثِ الباسل. فتفرَّس فيه ملكُ كابل استعدادُه للتقدّم لما رأى فيه من الأبهة والجلالة فزوّجهُ ابنته اعتضاداً بمكانه واستظهاراً به. وكان رُستم يأخذُ كل سنة من أهل كابل مِلءَ مسك ثور ذهباً. وكان ظن صاحبُ كابل أنه إذا صاهرَ شغاذ تركَ رُستم ذلك الرسم. فلما كان وقت أداء الخراج طالبَهُ رستم على الرسم المعلوم، وأجحفَ بأهلِ كابل حتى أدّوا الإتاوة المعهودة. فعَظُمَ ذلك على شَغاذ فأسرّه في نفسه، وخلا بِصهره وقال: إذا كان هذا الأخ لا يحترمني ولا يستحيي مني فليس عليّ مراعاته، وهو وأجنبي آخر سيان عندي. والرأي أن نحتال عليه ونمكُر به حتى نتمكنَ منه. فأخذا يتفكران في وُجوهِ الحيل وأسبابِ المُكر، ونسيا قول القائل: مَن حَفرَ حُفرةً لأخيه وقع فيها، وإن من يرَ يوماً يُرَ به. وقعدا ليلةً يفكران في ذلك من أوّلها إلى أن بزغت الشمس. فقال له شغاذ: الرأي أن تَعملَ دعوةً عظيمة يَحضُر فيها جميعُ أكابر كابل، وتجلُسَ للشراب بين المعازف والمزاهر، ثم تشتُمني على رؤوس الأشهاد، وتأمر بإخراجي ذليلاً مُهاناً حتى أجعل ذلك سبيلاً إلى الخروج إلى زابل وأشكوكَ إلى رُستم، وأذكرك عنده بفساد السريرة ودخل الطوية، وأحمله على قصدك وانتزاع المملكة من يدك. وأما أنت فاعمد إلى متصيد في طريقه، واحفر فيه جبابا على قدر رستم ورخشه، واغرز في قعر تلك الجباب نصولاً محدّدة وحراباً مؤللة ثم غط رؤوسها. وإياك أن يطلع على بعض هذا أحد. فتوافقا على هذا الرأي. ثم إن ملك كابل جلس يوماً للشراب واستحضر جميع أمرائه وأكابر مملكته، وحضر شغاذ. فلما دارت الكؤوس، وطابت النفوس أخذ شغاذ يفتخر بأبيه ويتبجح بأخيه. فصاح به الملك وقال: أقصر عن هذا الكلام فلست من شجرة دستان بن سام. وإن رستم ليستنكف من أخوّتك، وكذلك دستان يأنف بنوّتك. وأطال النفس في هذا النوع من الأذى. فاغتاظ شغاذ وخرج من المجلس متوجهاً إلى زابل. فلما اجتمع بأخيه سايله وقال: كيف حالك مع الكابلي؟ فقال: إنه كان قبل هذا يراعي جانبي ويحترمني. والآن فقد تغير عما كان عليه حتى جفاني على رؤوس الملأ، وفعل وصنع». وأغرى رستم به وحمله على قصده. فسارَ في جيش نحو كابل. فلما قرب منها أرسل شغاذ إلى صهره يأمره باستقبال رستم والتنصل إليه عما قرف به. فتلقى رستم ولما دنا منه رمى من رأسه شارة هندية كانت عليه، ونزع خفيه، وهوى بوجهه إلى الأرض بين يديه، وسعى في ركابه حافياً حاسراً، وجعل يستقيله العثرة التي صدرت منه في حالة السكر. فعفا عنه رستم. ثم نزل في بعض نواحي كابل عند ماء وخضرة وأرض طيبة. فقدّم إليه ملك كابل أنواع الأطعمة، وأحضره الشراب والمغاني. ثم قال لرستم: إن لنا هاهنا متصيداً مملوءاً يعافير وغزلانا. فإن نشطت نهضنا إليه. فوقع ذلك من رستم موقع الارتضاء، وحبَّبَ ذلك إليه محتومُ القضاء. فتهلّلَ وجهُهُ وارتاحَ للصيد فأمرَ بإسراج الرخش. وشَدَّ عليه عُدّتَه وركبَ ومعَهُ أخواه زواره وشغاذ وجماعة من الخواص. فساروا حتى وصلوا إلى ذلك المرج الذي حفر فيه الحفائر. فجعل الرخش يشم التراب ويرتاع، وينزوي بعضه إلى بعض ويثب، ويبحث الأرض بحوافره. فضجر



منه رستم وضربَه بالسوط ضَربةً وثَبَ منها فَوقَع به في حُفيرة من تلك الحفائر فتمزّقَ بطنُه وخاصرته بما فيها من الحراب والنصول. وأصابت رستم أيضاً فأسرعت في صدره وسائر جسده. ووقع زواره في حفيرة أخرى. فاجتهد رستم وتحامل حتى خرج من تلك الحفيرة ورمى بنفسه على شفيرها ممزق الصدر مثخناً بالجراحات. فنظر في وجه أخيه شغاد فعلم أن ذلك من فعله وخبثه. فقال له: أيها الخبيث! ستندم على ما جررته على نفسك. فقال: إن تصاريف الزمان قد انتقمتْ منك لكثرةِ ما كُنتَ تُدَلُّ به من قَتلِ الناس وسَفكِ الدماء. وقد انتهى الآن أمرك وتصرم شرك. ثم تصدّى له ملك كابل فقال له على وجه الاستهزاء: أيها البهلوان! ما هذا الذي أصابك في هذا المتصيد؟ أما نجمع لك الأطباء ليعالجوك فلعلك تبرأ وتصح. فقال له رستم: أيها الخبيث المحتال! أما أنا فقد انتهى زماني أسوة من مضى من الملوك السالفة مثل جمشيد إلى سياوَخش. وأنت فلا تبقى بعدي إلا قليلاً، وسترد من غدرك مورداً وبيلاً. ثم قال لأخيه شغاد: بعد أن أفضيتُ إلى هذه الحالة، وصرت بهذه الصفة فأحضرني قوسي مع نشابتين لأذود بها السباع عن نفسي إلى أن تخرج روحي. فتناول شغاد قوسه ووترها، ومدّها مدة ثم حطها بين يديه مع نشابتين. فتناولها رستم ففزع منه شغاد فتترس بشجرة دُلب كانت هناك مجوّفة قد أتت عليها السنون. فرمى رستم الشجرة بإحدى النشابتين فنفذت فيها وخلصت إلى شغاد وخاطته مع الشجرة فتأوه آهة خرجت معها روحه. ففرح رستم وحمد الله على ما يسر له من إدراك ثأره بيده وقبل موته. ثم خرجت في الحال روحه. ومات زواره أيضاً في الحفيرة التي وقع فيها. ولم يسلم ممن كان هناك من الزباليين غير فارس ركض إلى زابل وأخبر دستان بما أصاب ولده رستم. فقامت القيامة عليه وعلى جميع عشيرته، وشملهم الصياح والعويل. فنفذ «فوامرزَ بن رستم» في عسكر كثيف لنقل رستم من مصرعه إلى زابل. فلما وصلوا إلى ذلك الشجر الخسرواني حلوا عنه المنطقة الكيانية فخيطوا جراحاته وغسلوه، ووضعوه في تابوت من الساج. واستخرجوا زواره من مصرعه أيضاً، وحنطوه وكفنوه. ثم استخرجوا الرخش وخيطوا جراحاته وكفنوه في الديباج، وعملوا له تابوتاً ووضعوه فيه، وحملوه على فيل عظيم. وتوجهوا بالجميع نحو زابل والخلائق تضج، والأرض ترتج لوقع ذلك الرزء العظيم والخطب الهائل الجسيم. فعملوا له في بستانه ناووساً عظيماً، ووضعوا تابوته فيه على تخت من الذهب، وسدّوا باب الناووس. ودفنوا الرخش أيضاً. وأقيمت المآتم عليه في زابل حتى لا تكاد تسمع في أقطارها غير عويل النوادب ونحيب النوائح.

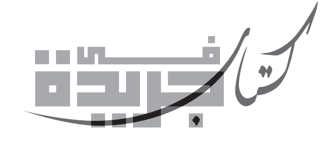
(1) الموابذة: الوزراء.

الاسكندر

بعد أن استتب الأمر للإسكندر المقدوني في إيران، وهذا ما يبدأ به الجزء الثاني من الشاهنامة الواقعة في جزئين، رأى أن يقصد الهند.

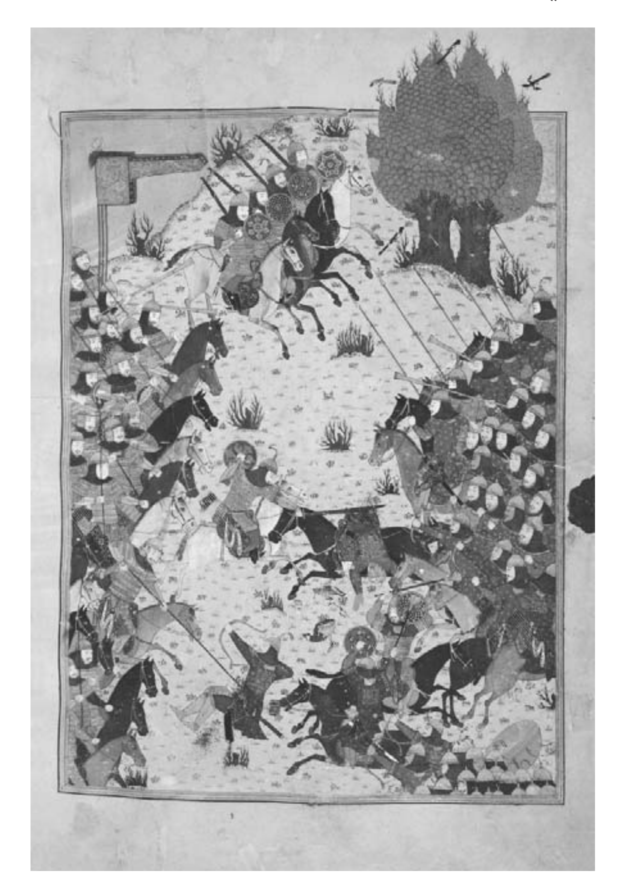
قال: ولما استتبتْ أمورُه بإيران عزَمَ على قَصدِ ملكٍ من مُلوك الهند يسمى كَيدا، وجرّ العساكر إليه، وسار إلى أن وصل إلى مدينته التي تُسمى ميلاب. فنزلَ عليها وكتبَ إليه كتاباً يأمره فيه بالخروج إلى خدمته، والدخول تحت طاعته. فلما وصل إليه الرسول ووقف على الكتاب أكرم الرسول وأجلسه بجنبه وأحسن إليه. وكان قد رأى رؤيا فقصها على مُعَبِّرٍ من البراهمة فأشار عليه في تَعبيرها بطاعةِ الاسكندر وتَرْكِ مُخالفته. فكتبَ جوابَ كتابه، وذكر فيه أن له أربعةَ أشياء لا يملكُها أحدٌ غيره، ولا مِثلَ لها في جميع العالم. قال: وإن أمر الملك نَفَذتها إليه ثم حَضَرتُ بنفسي بين يديه. فبعثَ الاسكندر إليه يسألُه عن الأشياء الأربعة. فقال: أحدها بنتٌ وراء ستري ليسَ لها نظيرٌ في الحسن والجمال وكمالُ الآداب. والثاني جامٌ إذا ملأتَهُ بالماء أو بالشراب لم يُنقِصْهُ الشربُ منه وإن شَربتْ منه مع الندماءِ عشرُ سنين. والثالثُ طبيبٌ إنْ أقامَ مع الملكِ لم يَصِبْه داءٌ مدَّة حياته. والرابعُ فيلسوفٌ يُخبر الملكَ بجميع ما يكونُ قَبلَ وقوعِه. فنفذَ إليه الإسكندر تِسعةَ أنفُسٍ من ثُقاته ومَشايخ فلاسفتِه ليستوضحَ ما قال، ويقفَ على صحته. فلما أتوهُ أمر بتزيينِ ابنتهِ ثم أذنَ لهم في الدخول إليها. فلما وقعتْ أبصارُهم عليها بهُتوا لما شاهدوا من صُورتِها وجمالها، واعترتهُم حَيرةٌ، وغشيتْهُم سُكرةٌ حتى بقوا عندها زماناً طويلاً وهم لا يشعرون. فلما أبطئوا على الكيد أرسل إليهم يستحضرهم. فلما حَضروا قال لهم: قد أطلْتُم عندها المقام. فقالوا: أيها الملك! إنا لم ننظر إليها، ولما تمّتْ رؤيتُنا لها، ولا لبثنا عندها أكثر من سلام وجواب. ثم إنهم كتبوا إلى الاسكندر يعلمونه بصفة البنت. فأرسل يطلبها مع الجام والطبيب والحكيم. فبادر كَيد الامتثال، وجهّزَ بنتَه، ونفذها إليه مع الأشياء الأخر. فَبَنى بالعروس وأعجَبَهُ ما رأى من جمالِها وكمالِها. ثم تَفرَّغ لتجربة الفيلسوف فنفذ إليه جاماً مملوءاً من السم، وأمره أن يطلي به أعضاءه حتى يزول عنه تعب الطريق ونَصْبِه. فرمى العالم في الجام ألف إبرة، وردّه إليه. فأمر الاسكندر فسبكت الإبر، وجعلت بيضة حديد ونفذها إلى الحكيم. فعمل الحكيم منها مرآة مصقولة وبعثها إليه. فأخذها الاسكندر ودفنها تحت الأرض حتى نديت وصدئت ثم ردّها إليه. فأخذها وجلاها وصقلها بأدوية مركبة بحيث لا يعود جوهرها يصدأ بعد ذلك، وردّها إلى الإسكندر. فأحضره الاسكندر وسايله عن مقاصد ما جرى من الرموز. قال: أردت بإلقاء الإبر في السم الإشعارَ بأن السم ينفذ في المسام ويتغلغل حتى يبلغ اللحم والدم والعظم مثل صنيع الإبر. وأما سبك الملك الإبر واتخاذها بيضةَ حديد فهو إشارةٌ منه إلى أن قلبه قد صار في هذه الخطوب والوقائع مثل بيضة الحديد، فهو لا يدرك المعاني الدقيقة

يستمد الفردوسي في هذا الفصل المتعلق بالاسكندر وفصلي داراب ودارا السابقين، الروايات اليونانية.
وسيرة الاسكندر التاريخية والخرافية معروفة في المشرق والمغرب، لا أجد حاجة إلى بيانها هنا، ولا يتسع المجال لقياس ما في الشاهنامة منها بما في الكتب الأخرى العربية واليونانية وغيرها.
لما رحل الإسكندر لغزو المملكة الفارسية، والانسياح في المشرق استصحب طائفة من العلماء بين مؤرّخ وجغرافي ونباتيّ وغير ذلك. فأنتجت رحلته طائفةً من الكتب، في بعضها ضَربٌ من المبالغة والتوهم. ورأى الجند في هذه المغازي البعيدة، من البلاد والأمم والمرائي المختلفة والحوادث ما بهرهم. ثم رجعوا إلى ديارهم يغلون في وصف ما رأوا، ويتزيدون في القول، ليروا الناس أنهم اقتحموا من المهالك ورأوا من العجائب ما لم يره أحد. ثم أضافت العصور إلى القصة قصصاً وزادت كل أمة شيئاً من أخبارها وأساطيرها. فصار الاسكندر بين الأمم بطل الوقائع وبطل الأساطير.
وفي مصر التي فتحها الاسكندر وورثها بطليموس أحد قوّاده، في الاسكندرية التي بناها ودفن فيها ؟ ألفت أخبار الاسكندر وجمعت أشتاتها، واتخذت صورة قصة طويلة مفصلة. ويظهر أنها ألفت في القرن الثالث الميلادي.
ومؤلف القصة مجهول، ولكنها تنسب في بعض النسخ إلى المؤرّخ كلِستِنيس أحد أقرباء أرسطو، الذي صحب الاسكندر في غزواته.



والرموز الخفية. فعملتُ منها مرآة إشارة إلى أني بحذقي في صناعتي ومهارتي في علمي أصيّر قلب الملك كالمرآة في الصفاء. وأما ردّ الملك إياها صدئة فهو إشارة منه إلى أن قلبه كان كالمرآة ولكنه صدئ من كثرة إراقته الدماء. فصقلتها ثانياً ورددتها إليه إشعاراً مني بأني سوف أجلو بالعلم السماوي قلبه، وأنفي عنه كل غين ورين. فاستحسن الاسكندر ذلك منه وأمر باحضار جملة من الذهب والفضة والثياب مع جام مملوء جوهراً. وأمر بدفع جميع ذلك إلى الفيلسوف. فامتنع من قبوله وقال: إن معي جوهراً مكنوناً لا يحوجني في الليل إلى حارس، ولا أخشى عليه في الطريق من سارق. ويكفيني من هذه الدنيا مطعم وملبس، ولا تسرني الزيادة عليهما، وأكره أن أكون حارساً لغيرهما. فتعجب الاسكندر من ذلك وقال: إني مؤثر لرأيك الثاقب وكلامك النافع وعلمك الوافر.

قال: وأمر باحضار الطبيب فسأله عن أعظم أسباب الأمراض. فقال: أن يأكُلَ الرجلُ فاضلاً عما يحتمله المزاج، ولا يضبط نفسه عند حضور الطعام. ثم قال: وإني سأُركّبُ لك دواء إذا استعملْتُه كنت أبداً صحيح



الجسم، قويَّ النفس، مسرورَ القلب، مُشرقَ اللون، منجذبَ الطبع إلى أعمال الخير، ثم لا يعتريك معهُ الشيبُ، ولا يضرُّكَ كثرةُ الأكل، ويُزيدُ في شهوتِك وحفظِك ودمك، ولا تحتاج بعده إلى شرب دواء آخر. فقال الاسكندر: إن فعلت ذلك كنت عندنا الموقر المكرم. وخلع عليه وأكرمه، وقدّمه على جميع من بحضرته من الأطباء. فصار إلى بعض الجبال وجمع الحشائش التي هي أخلاط ذلك الدواء. ولما فرغ من عمل الدواء الجبلي غسل به عقب الملك. وكان من بعد يلازمه ويحفظ صحته. قال: وكان الاسكندر كثير الباه مُكثراً من الاستمتاع بحظاياه. فأحسَّ الطبيب بضعف في مزاجه، وقال: إن مضاجعة النساء تجعل الشبان شيباً. ولا أشك أنها قد أثرت في الملك. فأنكر الاسكندر ما توهمه الطبيب من ضعفه، وقال: أنا نشيط النفس قوي المزاج. فلم يقبل الطبيب ذلك منه. وركب دواء يزيل الضعف. فنام الاسكندر تلك الليلة وحده ولم يقرب أحداً من نسائه. فلما أصبح الطبيب دخل بالدواء عليه فنظرَ إلى دليله فأراق ذلك الدواء، وقعد مع ندماء الملك في مجلس العيش والطرب. فقال الاسكندر: ما الذي أوجب إراقتك للدواء بعد أن تعبتَ في تركيبه؟ فقال: إن الملك قد نام البارحة وحدَه فزال عنه ذلك الضعف. وإذا نمت أيها الملك منفرداً لم تحتج إلى الدواء أبداْ. فضحك الاسكندر وتعجب من حذقه. ثم أمر له بخلعة وبدرة من الذهب، وفرس أدهم ذهبي السرج واللجام.

ثم إنه أمر بإحضار الجام الأصفر فجاءوا به مملوءاً من الماء البارد. فجعل الحاضرون يشربون منه من أول النهار إلى وقت النوم فلم ينقص ماؤه. فتعجب الملك. وقال: إنه لا نظير للهنود في الصناعات والعلوم، وإنهم وإن كانوا قد حُرِموا حُسنَ الوجوه فقد رُزقوا حُسنَ الأفعال. ونحنُ بعد هذا لا نقول في بلادهم بلاد الهند بل نقول بلاد السحر. فالتفتَ إلى الفيلسوف وسأله وقال: زيادةُ الماء في هذا الجام مستندة إلى النجوم أم الهندسة؟ فقال أيها الملك! لا تستصغر شأن هذا الجام. فقد صرفوا إلى صنعته زمناً طويلاً، وقاسوا منه تعباً كثيراً. ولما عزم الكيد على اتخاذه جمع عليه حذاق المنجمين، واستحضر من أهل كل إقليم أعلمهم بصناعة التنجيم. فطبعوه على طبائع النجوم فهو يجذب بخاصيته الماء من الفلك بإذن الله، ويستدره من الهواء بحيث لا تدركه حاسة نظر الإنسان. وهو كحجر المغناطيس في جذبه الحديد. فلا يزال مملوءاً لا يتطرّق إليه نقصان. فتعجبَ الاسكندر وقال: إنا نكتفي من الكَيد بهذه الأشياء الأربعة، ولا ننقض عهده أبد الدهر، ولا نطالبه بشيء آخر مدة العمر. ثم إنه أوقر مائتي دابة ذهباً وجوهراً، وصار بها إلى بعض تلك الجبال وحفر فيها حفائر كثيرة، وكنز فيها تلك الأموال الوافرة، وأهلك الذين تولوا حفرها وقاسَوا أمرها.

ذكر وصول الاسكندر إلى بيت الله الحرام

يعجب القارئ من هذا العنوان ومما تضمنه هذا الفصل، حين يجد مصر والأندلس تذكران معاً كأنهما بلدان متجاوران، وحين لا يجد في الأسطورة ذكر لما بين مصر والأندلس من البلاد. والظاهر أن كلمة «الأندلس» وضعت هنا غلطاً. ومن أجل ذلك تنفرد بها الشاهنامة. والروايات اليونانية تجعل مكان القصة «مملكة سميراميس» وتجعل قيذافه من ذريّة سميراميس.

فسارَ الإسكندر مولياً وجهَهُ شطرَ المسجد الحرام لزيارة بنيّةِ إسماعيلَ عليه السلام التي أضافها الله المنزه عن المكان إلى نفسه ودعا بيته الحرام. وإنما نسبه إلى نفسه ليعرفَ الناسُ طُهرَه، ولكي يولوا وجوههم شطره، ويأتوه من كل فج عميق، وينثالوا عليه من كل مرمى سحيق. ولم يزل منذ كان موطناً للطاعات ومهبطاً للخيرات. قال: ولما وصلَ الإسكندر إلى القادسية بلغ الخبرُ إلى نصر ابن قُتيب، وكان ممن يتزيّنُ به الحرم، فركب في جماعة من فرسان العرب، وأقبل إلى الاسكندر. ولما قرُبَ من مخيّمِهِ تقدّمهُ فارسٌ وأخبره بوصول نَصر، وأعلمه أنه من أولاد إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن. فاستقبله الإسكندر وأوسعه تبجيلاً وإعظاماً، وتفخيماً وإكراماً. فَسُرَّ نصرٌ بذلك ثم أخبره بنَسَبِهِ وأفضى إليه بعجره وبجره، وسأله الإسكندر ذات يوم وقال: أيها السيد الصادق! من الذي يتولى أمورُكم ويتقلدُ السلطنة في بلادكم؟ فقال أيها الملك! إن صاحبَها رجلٌ يقال له خُزاعة، وإن إسماعيل لما توفى جاءَ قحطان من البادية في عسكر كثير فاستولى على ممالك اليمن والحجاز، وانتزعها من أيدي آل إسماعيل فملأها ظلماً وجوراً، وقَتلَ خلائقَ من أهلها صبرا. ولما مات قحطان خلفه خزاعة فبقيتْ البلاد

تحتَ ظُلمهِ وحُكمهِ فهي الآن من أقصى اليمن إلى بحر مصر في يده وبأمره. وآل إسماعيل مستشكون من جَوره وحَيفِه. فلما سمع الاسكندر ذلك قَهرَ خُزاعة ومن ينتسب إليه فانتزعَ الملكَ منهم وقرّره في ذُريّة إسماعيل. ثم قَصَد الكعبةَ المعظمةَ راجلاً وطافَ بها، وأفرغَ على أهل الحَرَم أموالاً كثيرة حتى أغناهُم أجمعين. ثم أعطى نصراً كنزاً من الذهب وارتحلَ من مكة مشكورَ السعي موفورَ الأجر.

ذكر عبور الإسكندر إلى ديار مصر وما جرى بينه وبين «قَيذافه» ملكة الأندلس

فَجَرَّ العساكر إلى جُدّة، وأمر أصحابه باتخاذ السفن والزواريق، وركَبَ البحر وعبر إلى ديار مصر. فاستقبله ملكُها، وكان يسمى قَيطون، بالهدايا والتحف والمبارّ والخدم. فدخل مصر وأقام بها سنة. قال: وكان مُلك الأندلس إلى امرأة كانت تسمى قيذافه. وكانت ذات شوكة عظيمة وعساكر كثيرة وممالك فسيحة. وكانت قد نفذت إلى مصر مُصوراً وأمرته أن يبصر الاسكندر ويرسم صورته على حريرة يحملها إليها. فجاء المصور وصوّر صورة الاسكندر قائماً وقاعداً وراكباً، متبذلاً ومتجملاً، حاسراً ومتسلحاً. فانصرف بها إلى صاحبته.

فاتفق أنه جرى ذاتَ يوم عند الاسكندر ذكرُ قيذافه فَسألَ الاسكندر عن حالها قيطون ملك مصر. فوصف له ما تخصصت به هذه المرأة من بَسطةِ ملكها ونفاذ حكمها.

وذكر أن لها مدينة من الحجارة طولها أربع فراسخ في عرض مثلها. وهي مشحونة بالأموال والرجال. فكتب إليها الاسكندر كتاباً يأمرها فيه بالتزام الخِراج له وأدائه إليه، وتوعدها بأنها إن لوت رأسها عن ذلك لم يخاطبها إلا بالسيف. وجعل ينبهها على الاعتبار بـ«دارا»، و«فور»(1) فإن في الاعتبار بهما ما يُغنيها عن ناصح يرشدها إلى سبيل الطاعة. فلما وصل الكتاب إلى قيذافه أجابت عنه على مقتضى غلوائها بما لم يرضه الاسكندر. فارتحل في عساكره قاصداً قصدها وسار مسيرة شمس فوصل إلى مدينة حصينة من حدود ممالكها. وكان عليها ملك يسمى فَيران صاحب شوكة وثروة. فحاصرها الإسكندر ونصب عليها العرادات والمجانيق ففتحها بعد أسبوع. ولما دخل المدينة منعَ عساكرَه عن إراقة الدماء. وكان صاحب هذه المدينة قد زوّجَ ابنةً له من ابن لقيذافه يسمى قيذروش. وكان قد جاء إليه لإقامة رسم العرس فوقع هو وزوجته في يد رجل من أصحاب الاسكندر يسمى شهركير فبلغ ذلك الاسكندر، فسنح له رأي فاستحضر وزيراً له يسمى بيطقون وأعطاه تاجه وتخته، وأمره أن يقعد في مكانه من منصب السلطنة في مجلس خاص لا يحضُرُه عامةُ أصحاب الاسكندر. وواطأهُ على أنه إذا أتوه بابن قيذافه، يأمر بضرب رقبته فيشفع إليه الاسكندر وهو واقف على رسم الخدمة فيهبه له. ثم يدعوه يعني الاسكندر ويرسله إلى قيذافه مع عشرة فرسان، ويأمره بأن يوصل رسالته ويُعجّل الرجوعَ بجوابها. قال: فلما كان الغد لبسَ وزيرُه التاج وجلسَ على التخت ووقف الاسكندر ماثلاً في الخدمة فجاء شهركير بابن قيذافه مع عروسه، ودخل بهما عليه. فلما رآه قال: من ذا الرجل؟ قال الشاب: أنا ابن قيذافه. وكنت تزوّجت بابنة صاحب هذه المدينة فَقَدِمْتُها بسبب العرس فأصبحتُ أسيراً في يدي شهركير، جريحاً منكوس الطالع. فتغضب عليه بيطقون وأمر بضرب رقبته مع زوجته. فبادر الاسكندر وقبل الأرض بين يديه وتشفع فيه واستوهبه منه فوهبهما له. ثم التفت الملك المعمول إلى ابن قيذافه وقال: قد تخلصت برأسٍ كاد يفارق جسدك. والآن أرسلك مع الشفيع فيك إلى أمك كي تبلغها رسالتي، وتخبرها بعظم ملكي وشدّة شوكي، وتحثها على التزام الخراج وأدائه. وهو دستوري وصاحب رأيي فاعملْ معه ما عمل معك. وإذا سمع الجواب من الملكة فسرحه إليّ كما يليق بك. فقال: ما حفظ عليّ حياتي سواه. ولا أعامله إلا بما عاملني. فاختار الاسكندر عشرة أنفس من ثقات أصحابه وحفظة سرّه، واستصْحَبَهُم وأمرَهم ألا يُسمّوه إلا بيطقون. فتقدّمه ابن قيذافه، وسار الرسول مُقتفياً أثره في سير حثيث فوصلوا في طريقهم إلى جبل أحجارُه بلّور، وعلى الجبل ثمارٌ كثيرة من كل نوع، وشاهدَ عليه قُروداً كثيرة. فعبروا وساروا إلى قرب المدينة فاستقبلت الملكة ولدها. ولما إجتمعَ سرد عليها جميع أحوال الاسكندر وما عمل في مدينة فيران من الأسر والنهب. ثم سرد عليها قصة أسره مع صاحبته، وما همّ به الاسكندر من قتله وإراقة دمه، وأنه ما خلص إلا بشفاعة هذا الرسول. فارتعدت فرائصها من الفزع.

ثم استحضرت الرسول إلى إيوانها وسايلته وأكرمته ثم أنزلته في موضع يليق به، وأدرّت عليه الأنزال، ونفذت إليه التحف والمبارّ. ثم إنه لما أصبح ركب إلى خدمة الملكة فرفعت دونه الحُجب وأدخلوه راكباً إلى الدهليز. فدخل ورأى الملكة قاعدة على تخت من العاج معتصبة بتاج من الفيروزج، وعليها قباء صيني منسوج بالذهب، وهي كأنها في إشراق الشمس، في مجلس سواريه من البلور، وسقوفه من الجزع المرصع بالجوهر، على رأسها جواريها في زينتهن. فَبُهتَ الاسكندر لِما شاهد إذ لم يكن رأى مثلَ ما رأى في بلاد الروم ولا في بلاد إيران. ولما قرب من الملكة قبّل الأرض وخدم فأكرمته وأكثرتْ من مسايلته. ثم مَدّوا السّماطَ وطعموا. ولما خلا المجلس من الأجانب أمرت بإحضار الشراب والمغنين. وكان أوّل شربهم على اسم الملكة وكانت في أثناء الشرب تكثر النظر إلى الاسكندر، فأمرت خازنها فجاء بالحريرة التي فيها صورة الاسكندر مصوّرة. فلما أحضرت نشرتها وجعلت تنظر فيها وتنظر إلى وجه الاسكندر فعلمت أنه الاسكندر وأنه جاءها في زيّ رسول. فقالت له: أيها الرسول المسترسل! هات ما حملك الإسكندر. فقال: إنه أمرني وقال: قل لقيذافه الطاهرة لا تطلبي غير سبيل السداد، ولا تخالفي أمرنا، ولتكن يقظتُكِ لك نافعةً، واعلمي أنا لما تحققنا من عقلك ورأيك ودهاءك وحزمك لاطفناك في المقال ولم نبدأك بالقتال. والأصوب لك بذل الخراج والتزامه لنا. فإنه لا يخفى عليك أنه ليس لك بمقاومتنا يدان. فغاظها ما سَمعتْ منه لكنها آثرت السكون والسكوت. وصرفته إلى منزلهِ ووعدتهُ بأن تُجاوبه غداً عن رسالته.

فانصرف الاسكندر وعاد إليها من الغد فدخل عليها في مجلس من البلور مُنجّدٍ بالعقيق والزبرجد، أرضُه من العُود والصندل، وسقفُه من الجزع والزبرجد. فأدهشهُ ما رأى وبهَرهُ ذلك المنظر الأنيق. ثم تقدّم حتى قَرُب من الملكة فأجلس عند التخت على كرسي من الذهب. فقالت له: كأنك قد قضيت العجب من هذا المجلس. فمدحها الاسكندر وقال: إنك أعلى الملوك شرفاً ومنصباً وأبهرُهم جلالة ورفعة، وإن بَحرك لَحاوٍ لكل جَوهر، وإنك مُجتمعُ كل عز ومفخر. فضحكتْ لقوله. ثم انتفض المجلس وخلت به وقالت: يابن فيلقوس! إن قتالكَ سُرور، وإن نعيمَكَ بُؤس. فَعرَّفتهُ بذلك أنها عَرفته. فاصفرَّ وجهُه، وأُرعِبَ قلبُه فأنكَر ما ذكرته. فجاءتْ بصورتِه فلما رآها تحير وأظلم في عينه النهار وقال: لو كان معي خنجر لقتلتك أو قتلت نفسي لصنيعي وتغريري بروحي. فضحكتْ وقالتْ: لا تحتدْ أيها الشهريار ولا تغتر بنفسك. أين صحّةُ دعواك فيما تزعم أنك عالم الأرض؟ وأي قيمة لعلمك وقد حملك على أن قَدِمتَ بنفسكَ بين أشداقِ الثُعبان، وعرّضتها لبائقةٍ لا تُبقي ولا تُذر؟ ولكنّي أعافُ إراقةَ دماء الملوك. فكن آمناً على نفسك فإني لا أسميك ما دمت هاهنا إلا بيطقون، مُحافظةً على

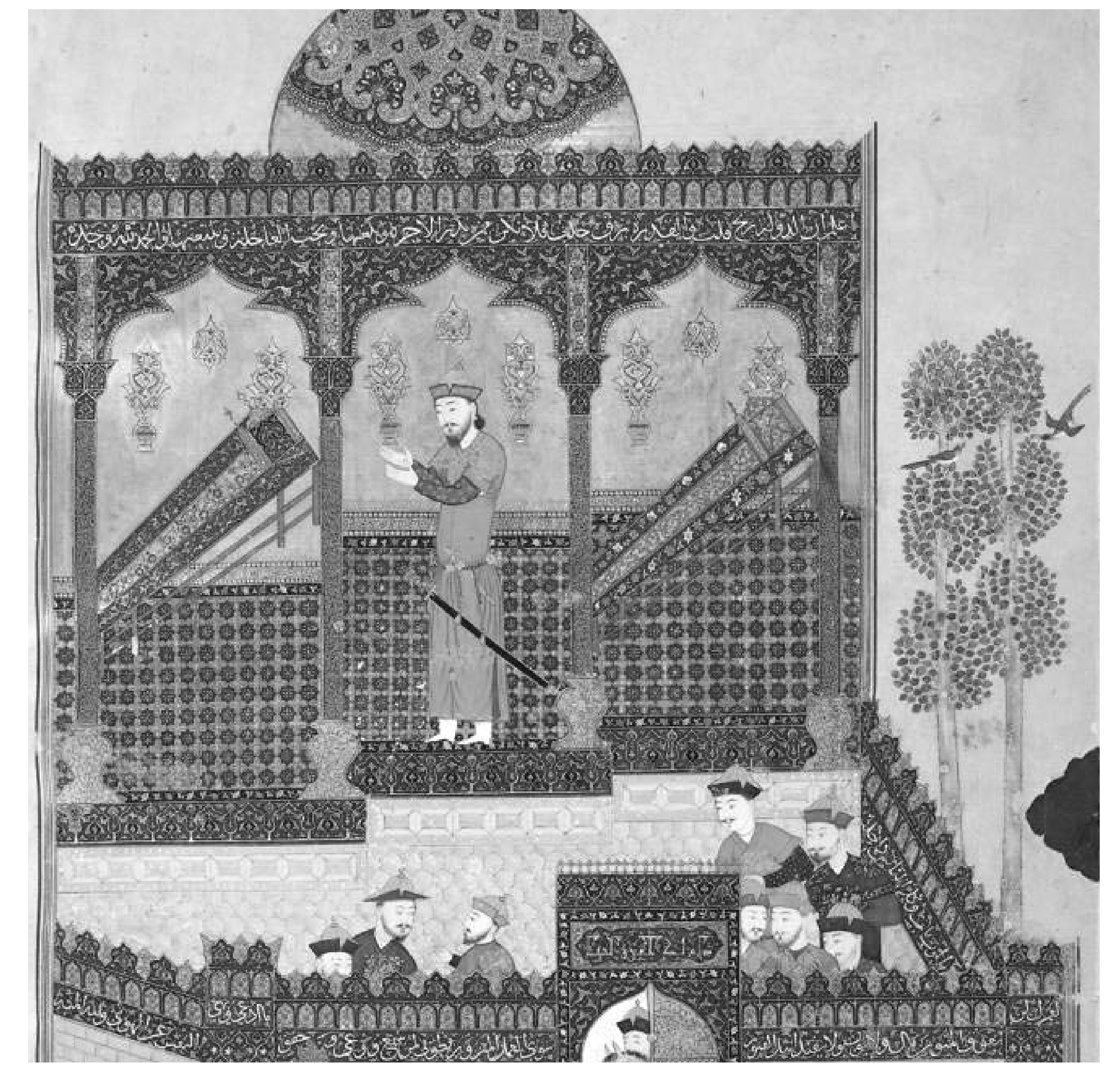
سرك. ولكن لا ينبغي أن يقفَ ولدي طينوش على أنك مُحبٌّ للاسكندر أو ناصح له أو قريب منه. فإنه رجل خفيف الرأس. وهو ختن قتيلك «فور» ملك الهند. وأخشى أن ينالك منه مكروه. وانصرف الآن مسرور القلب منشرح الصدر آمن النفس. فانصرف الاسكندر.

(1) أسماء ملوك في الهند.

ذكر وفاة الاسكندر

قال صاحب الكتاب: ثم إنه وصل إلى بابل فاتفق أنه ولد في تلك الليلة مولود له رأس كرأس الأسد، وحافر كحافر الدواب، وذنب كذنب الثور، لا يُشبهُ الإنسَ إلا في صدره وكتفه. فلما وضعته أمه مات في الحال. فحملوه إلى حضرة الملك فَتطيّرَ منه واستحضر المنجمين وسألهم عن طالع ذلك المولود وما تدل عليه أحكام النجوم في ولادته. فأظلمت الدنيا في عيونهم لِما فَهموه، وكَتَموا الاسكندر ما عَلِموه. فأوعدَهُم وهدّدهُم فقالوا له بعضُ المنجمين: أيها الملك! إنك ولدت على طالع الأسد. فإذ قد رأيتَ رأسَ المولود الميت مثل رأس الأسد فقد دل على زوال ملكك وانتهاء عمرك. واتفقتْ كلمةُ سائرِ المنجمين على ذلك. فاغتمّ الاسكندرُ ثم قال: إنه لا بد من الموت، ولستُ أهتم لذلك. ثم مرض في يومه ذلك وهو ببابل فاستحضر كاتبَه وكتبَ إلى أمه كتاباً يُعزيها فيه عن نفسه، ويوصي إليها ويأمرها بالصبر والرضاء بما قدّر له من قِصَر العُمر، والتسليم لقضاء الله النافذ في الخلق. وقال: إني قد أمرتُ أكابر الروم، إذا انصرفوا من هذه البلاد، بالتمسك بطاعتك والانقياد لأمرك. وأما أكابرُ إيران الذين كان يخافُ على بلاد الروم من معرتهم فقد ملّكتُ كلَّ واحدٍ منهم إقليماً من الأقاليم حتى يَمنعَهُ الشُغل بما في يدهِ عن بلاد الروم. وإذا مُتُّ فادفنوني في ترابِ مصر، وفرّقوا من خزائني مائة ألف دينار في هذه السنة على المشتغلينَ بأنفسهم من عباد الله. وروشنك ؟ يعني زوجته ؟ إن ولدت ابناً فهو ملك الروم لا غير. وإن ولدت بنتاً فَلْتُزَوّج من ابن فيلقوس، واتخذيه ولداً، وجدّدي به ذِكرَ الاسكندر أبداً. وأما ابنةُ كَيدا ملكِ الهند فردّوها، إن أرادت، إلى أبيها مع خزائنها التي جاءت معها، في عماريتها، ومع تاجها وتختها. وأنا قد استسلمت للموت عن رأس العجز بعد أن فرغت من أشغالي كلها. وقد أمرتُ أن يُعملَ لي تابوتٌ من الذهب، ويُملأُ من العسل ثم أضجعُ فيه مُكفناً في الديباجِ والحرير. وعند الانتهاء إلى ذلك ينتهي الكلام. ثم احفظي وصيتي، ولا تخالفي موعظتي، ولا تمسكي من الأموال التي جمعتها من الهند والصين وسائر الأقاليم أكثرَ من القُوت، وفرّقي الباقي على المحتاجين. ثم حاجتي إليك ألاّ تجزعي عليّ ولا تُؤذي نفسك، واشفعي إلى الله عز وجل وأغيثيني بدُعائك فإنهُ لا يأخذ بيدي غير ذلك» ثم ختم الكتاب ونفذه إلى الروم على يدي بعض المسرعين.

قال: ولما علم العسكر بمرض الاسكندر تسارعوا إلى خدمة تخته واجتمعوا على بابه وضجّوا من وراء حجابه. فأمر الاسكندر بإخراج تخته من إيوانه إلى الفضاء فلما رأوه على ما به من الضعف أجهشوا إليه بالنحيب والبكاء. فقال لهم الاسكندر إستشعروا الخوفَ، وتسربلوا لباسَ الحياءِ، ولا تَعدِلوا عن المحجّةِ البيضاء، واحفظوا وصيتي، ولا تخلَعوا رِبقةَ طاعتي. فلما فرغ من كلامه خرجت روحه فوقع العويل والنحيب في العسكر، وقام الصراخ عليه. فأحرقوا دارَه التي كانت مُستقره، وحذفوا من دوابه ألف فرس. ثم جاءوا بتابوت من الذهب مملوء من العسل، وغسله سكوبا بالماورد، وغمرَهُ بالكافور، وكفّنه في ثَوب ديباج مُذهّب، ووضعهُ في وسط العسل من الرأس إلى القدم، وأطبقوا عليه التابوت. فلما رفعوه من ذلك المكان اختلفت الفُرس والروم فقالتْ الفُرس: لا يدفن الاسكندر إلا حيث مات. وقالتْ الرومُ: لا يُدفن إلا حيثُ ولد. فقال شيخ من فارس: إن هاهنا موضعاً يقال له جرم، وهناك جَبَلٌ من سألَهُ عن شيء أجابَهُ عنه بإذنِ الله، فاسألوا الجبلَ حتى يَحكُم بينكم. فتوجهوا نحو الجبل فسألوه فأجاب وقال: مالكم تحبسونَ تابوتَ الملك؟ إن تراب الاسكندر في أرض الاسكندرية التي بناها في حياته. فبادَروا عند ذلك إلى حمله وحملوه إلى الاسكندرية. فلما وصلوا إليها خرج الخلائق واجتمعوا على تابوته حتى لو حسبهم المهندس لوجدهم يزيدون على مائة ألف. فجاء الحكيمُ أرسطاليس ووضع يده على تابوته وقال: أين رأيُك وعقلُك أيها الملكُ حتى صار مسكنُك هذا المكان الضيق؟ وكيفَ أفضيتَ بنضارةِ الشباب إلى مُضاجعةِ التراب؟ وقال آخر: أيها الملك! ما زِلتَ تَدفنُ الذهبَ حتى دُفِنتَ معه ووقعتَ في خَطبٍ لا سبيل إلى تلافيه. واجتمع علماء الروم فخاطبه

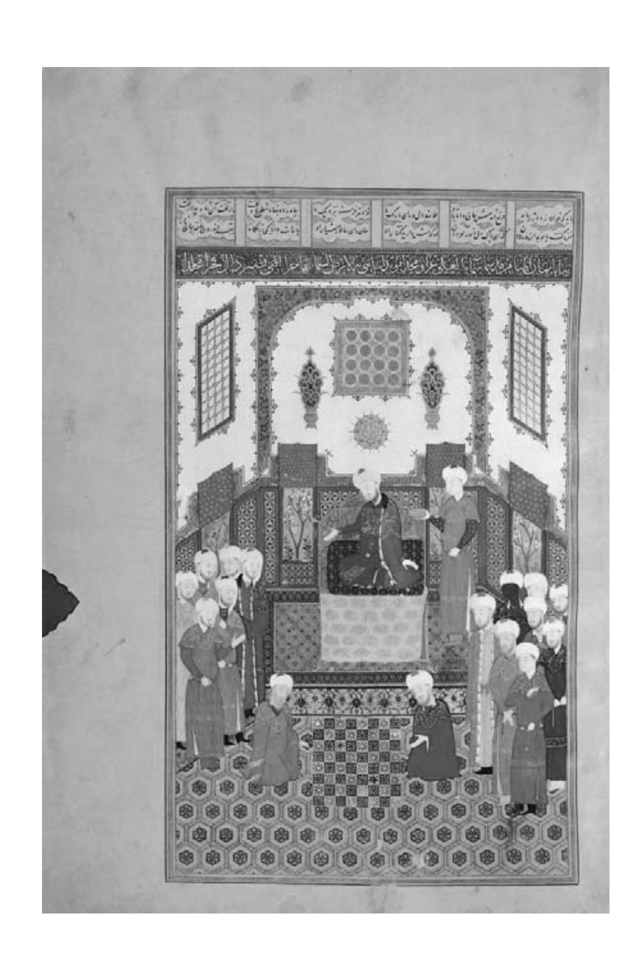


كلُ واحدٍ منهم بحكمةٍ، وأبّنهُ بموعظة. ثم جاءتْ أمه ووضعت وجهَها على تابوته وهي تبكي وتنتحب وتقول: ما أبعدكِ مني مع قُربك! وما أعظمَ خطبك على صحبك! ثم جاء زوجته روشنَك بنت دارا، وطفقت تبكي وتندبه وتنتحب وتنوحُ عليه. ثم دَفنوه ولم تكُن أيّامُه إلا كبرقٍ ومضَ، وطرفٍ غَمض.

وهذا آخر الخبر عن قصة الاسكندر. والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله أجمعين وصحبه.

ذكر الساسانية ومبدأ أمر «أردشير»

قال صاحب الكتاب: لما قتل دارا بن دارا كان له ولدٌ عاقل يُسمى ساسان. فلما رأى ما حَلَّ بأبيه هَربَ إلى بلاد الهند. وماتَ بها وخلف ولداً سمي باسم ساسان. وتَسمّى بهذا الإسم مَن وُلد منهم. فلما كان الولد الرابع، وسمي أيضاً ساسان، أقبل إلى «اصطخر»، وكان المتملك بها «بابك»، فعرض نفسه على بعض الرعاة ليستخدِمَهُ في الرعي فاسترعاه. ولما عُرِفَ بحُسن الأثر فيما عاناه من ذلك ترقى حتى صار رأس الرعاة الموسومين بخدمة «بابك». فاتفق أن بابك رآه ذات ليلة في المنام على فيل هائج وبيده سيفٌ مُهند، وكلّ من رآه يسجُد له ويخدِمُه. فتعجّبَ بابكُ مما رأى منه. فلما كانت الليلة الثانية رآه وكان بعض من يعبد النار أتاه بثلاث نيران من نيرانهم المشهورة، وأوقدوها بين يديه بالعود الرطب. فاهتمَّ بابكُ فلما أصبح أحضر العلماءَ والموابذة، وقَصَّ عليهُم رؤياه. فقالوا: أيها الملك! منْ رأيتَ له هذا المنام يملك إيران، وإن لم يملك فهو سيملك ولده. فسرّى عنه. ثم استقدم ساسان فجاء من الصحراء في عبائه وقد ضربه الثلج والصقيع. فخلا به واستخبره عن حاله ونسبه. فقال: إن أعطيت الراعي الأمان، وحلفت ألا تناله بسوء أفضى إليك بسرِّهِ وأطلعَكَ على حاله. فأعطاهُ الأمان وحلفَ له. فقال: أنا ابنُ ساسان حافدُ الملك بهمن بن إسفنديار بن كُشتاسب. وأعلمَهُ بالحال. فبكى بابك وأحضر له دستاً من الثياب البهلوانية، ومركوباً من المراكب الخسروانية، ونفذه إلى الحمام. فطرح العباء ولبس تلك الملابس الفاخرة. وأخلى له قصراً وأخدمُه الغلمانَ والخدم. ثم زوّجه ابنته فولدتْ ابناً فسمّاه أردشير. وهو الذي يُقال له «أردشير بابكان». فترعرعَ الصبي وكبُرَ وتعلم الفروسية والآداب الملوكية حتى صار واحدَ زمانِه وأجلَّ أقرانه. فتناهى خبرُه إلى أردوان فكتبَ إليه وقال: بلغنا أن ولدك أردشير فارسٌ ذو شجاعة، ومتكلمٌ صاحبُ فصاحةٍ. فإذا قرأتَ الكتاب فأرسله إلينا حتى نجذب بضبعه، ونُنوّه بذكره، ويكون عندنا بمنزلة الولد. فلما وصل الكتابُ إلى بابك نفذ أردشير إلى الري إلى خدمة أردوان، وأصحبه رسولاً مع جملة من الهدايا والتحف. فلما وصل إلى أردوان أكرمه وأجلسه عند تخته. ثم أخذ يربّيه تربية الولد ولا يكادُ يصبر عنه. فاتفق يوماً مع أردوان في الصيد، ومع أردوان بنوه الأربعة. فركضوا خلف حمار وحش، وركض أردشير. ولما قَرُبَ منه رماه بنشابة مرّت فيه إلى فُوقها. فحضرَ أردوان فرأى النشابةَ فأعجبته الرمية. فسأل عن راميها فقال أردشير: أنا صاحبها. وزعم ابن أردوان أني صاحبها. فقال له



ملوك الطوائف

تنازع خلفاء الاسكندر وتحاربوا على الملك، وتقلبت بهم الغِيَر حتى استولى سيولكس على بابل سنة 312 ق.م. وتوطد سلطانه في آسيا الغربية ثم امتد سلطانه إلى نهر سيحون ونهر السند. واستمرّت دولة السلوقيين قوية زهاء قرنين ثم اضمحلت بعد أنطيوكس السابع.

ولكن سُلطان السلوقيين لم يمتد على إيران طويلاً فإن دولةً نشأت في القسم الشمالي الغربي من إيران سنة 248 ق.م. واتخذت حاضرتها حوالي دامغان في قومس. ونازعت السلوقيين السيطرة على إيران وغيرها وكانت الحرب سجالاً بينهما: يمتد سلطان هذه الدولة أحياناً حتى يعم ميديا وفارس وبابل، ويحسر أحياناً حتى لا يتجاوز مهدها. حتى دارت الدائرة على السلوقيين فعجزوا أن ينازعوا هذه السلطة سلطانها.

فلما ظهرت روما في آسيا تصدّت لها هذه الدولة فتنازعها السلطان على ما بين النهرين وغيره حتى انتهى الجِلادُ الطويل بهزيمة الرومان عند نصيبين أمام أرطبانوس (أردوان) آخر ملوك هذه الدولة سنة 217م.

هذه الدولة التي حاربت السلوقيين ثم الرومان وبقي سلطانُها خمساً وسبعين وأربعمائة سنة (249 ق.م. – 226 م.) هي التي يسميها الأوربيون دولة برثيا ويسمون الأسرة التي قامت بها أسرة الأرساسيين، ويسميها مؤرّخو العرب والفرس دولة الأشكانيين (أو الأشغانيين أو الأشقانيين)، ويسمون أوّل ملوكها أشك وينسبونه، كدأب الفرس في وصل الأسر الحديثة بالقديمة، إلى كيقُباد أو كيكاوُس. وتختلف الروايات في عدد ملوكهم ومدّة حكمهم بين أحد عشر وعشرين ملكاً، وبين 266 و523 سنة. وقد ذكر البيروني روايات مختلفة في عددهم وسنيّهم ثم انتهى به التحقيق إلى أن أصح الروايات ما في كتاب الشابورقان أن ما بين الاسكندر إلى أردشير 537 سنة. وذلك قريب جداً من الحقيقة.

ويقول مؤرّخو العرب والفرس أن الأشكانيين كانوا أعظم ملوك الطوائف الذين نبغوا في بلاد الفرس بعد الاسكندر، وأن هؤلاء كانوا يقرون بزعامتهم، وأن ملوك الطوائف كانوا زهاء تسعين. وفي كارنامك أنهم كانوا أربعين ومائتين.

وكانت إيران إذ ذاك قسمين: أحدُهما خاضعٌ للأشكانيين بغير واسطة. وفيه أربع عشرة ولاية. والثاني في سلطان ملوك يقرون بزعامة الأشكانيين. وبعضهم يسيطر على ملوك أصغر منه أيضاً.

والأشكانيون كانوا، فيما يُظنُّ، تورانيين، وكانوا يتأثرون بالحضارة اليونانية. ولم يكن لهم سلطان نافذ يعم بلاد الفرس كلها. وكأنه من أجل هذا لم تعن بهم القصص الفارسية عنايتها بالأسر الفارسية. بل سلبتهم بعض وقائعهم وأسمائهم لتحلى بها وقائع البيشداديين والكيانيين؛ فَ قارَنْ وكودرز وكيووبيزن الذين تقدّم ذكرهم ليسوا إلا من أمراء الأشكانيين.

ويقول الفردوسي بعد ذكر بعض ملوكهم: «كان قصيراً أصلهم وفرعهم فلم يحدّث أهل التجارب بتاريخهم. ولم أسمع عنهم إلا الاسم ولا رأيتهم في كتاب الملوك».

أردشير: إن هذه الصحراء ملأى من اليعافير. فارم آخر إن كنت صادقاً. فغضبَ أردوان حين رفع صوتَه على صوتِ ولده. وصرَفَهُ عن مكانه ذلك، وفوّض إليه سالارية الاصطبل والخيل. فرجع الشاب منكسر القلب ولازم خِدمةَ خيل الملك. وكتبَ إلى جدّه كتاباً يعلمه فيه بحاله. فلما وصل الكتاب إلى بابك اهتم فكتب إليه يُعيره ويعنفه ويُسفّهَ عقلَه حين راكضَ ولدَ الملك وجاراه في الصيد. ونفذ إليه قدراً من الذهب ليستعينَ به في نفقته. فاتخذ داراً عند اصطبل الملك ولازم بيته. ولم يكن له شغل غير الأكل والشرب. وكان هذا البيت تحت قصر الملك أردوان. وكان له في القصر جارية تسمى الجُلنار. وكانت خازنتَه ودُستوره. فأشرفتْ يوماً على أردشير فعشقته. ولما أمست أخذت حبلاً وعقدت فيه عقداً وربطته في بعض شرفات القصر ونزلت منه إلى منزل أردشير فصادفته وهو في غمار النوم ممتلئاً من الأسف والهم، فرفعتْ رأسَه ووضعتْه في حجرها. فلما استيقظ ضمته إلى صدرها وألصقت خده بخدّها. ثم شغف كل واحد منهما بصاحبه. وجعلتْ تختلفُ هكذا إلى أردشير. ثم اتفق موت بابك باصطخر. وامتدّت أطماع الأكابر إلى ملك فارس. فعين أردوان لذلك ولده الأكبر، ونفذه إليها. فلما بلغ ذلك أردشير أظلمت الدنيا في عينه، وعزم على أن يهرب من عند أردوان. فاتفق أن الملك أحضر جميع من كان عنده من المنجمين ونفذهم إلى قصر الجلنار لينظروا في طالع الملك، ويفتشوا عن أسرار الفلك في ملكه وفيمن يتولى بعده. فقعدوا ثلاثة أيام يطالعون الزيجات ويبحثون عن قضايا النجوم. ولما كان اليوم الرابع حضروا عند أردوان وقالوا: إنه سينزعج خاطر الملك في هذا القرب، ويهرب صغير من كبير، ويكون الهارب من المنتمين إلى عرق كريم فيصير ملك الأرض وصاحب التاج والتخت. فَعَظُمَ ذلك على أردوان وامتلأ همّاً وحزناً. ولما كان الليل نزلت الجارية إلى أردشير فأخبرته بما سَمِعتْ من قول المنجمين، فَصمّمَ عند ذلك عزمه على الفرار، وعرض ذلك على الجارية فوافقته عليه. فرجعت وأخذت من خزانة الملك ما احتاجت إليه من الجواهر النفيسة، وأخذت قدراً من الذهب. ولما كانت الليلة الثانية نزلت إلى أردشير فأسرجَ فرسين أشهب وأدهم فركب هو أحدهما وركبت الجارية الآخر، فطار بهما الركض.

ذكر الخبر عن دودة هفتواذ

قال صاحب الكتاب: كان في بلاد فارس مدينة تسمى كُخاران على ساحل البحر. وكانت كثيرة الخلق ضيقة الساحة. من عادة بنات أهلها أنهن يُوافينَ باب المدينة كل صبيحة، فإذا اجتمعنَ تَوجهن نحو سَفحِ جَبلٍ هناك قريب، ومعهُن مَغازِلُهنَّ. فَيَقبلنَ على الغزلِ ثم يَنصرفنَ بالعشيِّ إلى مساكِنِهنّ. وكان في هذه المدينة رجل يسمى هفتواذ. وإنما سمي بذلك لأنه كان له سبعة بنين. وكانت له بنت تخرج كل يوم مع البنات إلى الجبل المذكور. فحضرت المكان يوماً فسقطت من بعض الأشجار التي كانت هناك في حجرها تفاحة. فَعَضّتها فوجدتْ في وسطها دودة فأخذتها ووضعتها في وعاء برسم المغزل من الخلنج، وقالت: سأغزل اليوم على سعادة هذه الدودة. فغزلت شيئاً كثيراً من القطن فوق المعهود منها، وغلبت أترابها. ولم يزل ذلك دأبها حتى استَغنَتْ بكثرةِ غَزلها. وكانت تُطعمُ الدودةَ كل يوم قِطعةَ تُفاح. فقالت لها أمها يوماً: كأنَّ الجنَ معك حتى تهيأ لك هذا الغزل الكثير. فأخبرتها بحالِ الدودة، وعلم بذلك أبوها أيضاً. فتيمّنوا بالدودة وجعلوا يعتنون بأمرها ويربونها حتى كبرُت وضاقَ عليها وعاء المغزل. فعملوا لها صندوقاً ووضعوها فيه. وظهرت آثار بركتها على حال هفتواذ وأولاده فكانوا يزدادون كل يوم ثروة ونماء وترفعاً واعتلاء حتى استظهر بكنز غمر ومال دثر. فطمعَ أميرُ تلك المدينة في ذاتِ يده واغتصابِه كُلِّ أمواله. فاجتمعَ أهلُ المدينة مع هفتواذ، وخرجوا على الأمير وتصدّوا لقتاله. فوقعت بينهم وقعة عظيمة أفضت إلى قتل الأمير. واستبد هفتواذ بذخائره وأمواله. وخرجَ من تلك المدينة، وبنى على رأس بعض جبالها قلعة حصينة وتحوّل إليها بخيله ورجله وأهله وولده ودودته. وحصن القلعة حتى عمل لها سوراً من حديد. ثم إن الصندوق ضاق على الدودة فحفروا لها في الصخر حوضاً في القلعة، ووضعوها فيه، ووكلوا بها خدماً ومستحفظين. وكانوا يطعمونها كل يوم قدراً من الأرز، ويغذونها بالشهد واللبن حتى أتت عليها خمس سنوات فصارت من الكبر والضخامة كالفيل. واستفاض خبرها بين الناس فسميت تلك الناحية كرمان (كرم بالفارسية تعني الدودة وجمعها كرمان).

يُعتقد أن هذه القصة ذكرى مبهمة من جلب دود القز إلى إيران، وازدهار صناعة الحرير والثراء الذي تيسر للناس منها. ويرى درمستتَر ونُلدكه أنها شعبة من أساطير التنين عند الأمم الهِندية–الأوربية. ويروي درمستتر قصة اسكندنافية تشبه هذه القصة بعض الشبه:
أعطى الكونت هرُّدر ابنته الجميلة تورا ثعباناً وجدَهُ في بيضةِ نسر. وأُعجبت تورا بالثعبان فاتخذت له مِهاداً من الذهب في صندوق. ويكبر الثعبان فيكبر الذهب معه حتى يضيق به الصندوق ومسكن الصبية. وشَرِسَ الثُعبان فلم يجرُؤ على الدنو منه أحد إلا الرجل الذي كان يطعِمه. وكان طعامه ثوراً كاملاً كل يوم.
وعد الكونت أن يعطي ابنته والذهب من يقتل التنين. فانتدب لهذا غلام في الخامسة عشرة اسمه ركنر، وقتله وتزوّج تورا.

قال: واجتمع لهفتواذ جيش عظيم حتى كان بنوه السبعة يركبون في عشرة آلاف فارس. وكانوا مظفرين على جميع من ينهض لقتالهم من الملوك. فلما وقف أردشير على حال هفتواذ، وأنه لا يفكر في بيت كيقباذ نفذ إليه بعض الإصبهَبذين في عسكر عظيم كثيف. فكسرهم هفتواذ كسراً، وأوسعهم قتلاً وأسراً. فعاد من سلم من الوقعة إلى أردشير فأعلمه بما جرى على أصحابه. فالتهب غيظاً وسار في عساكره قاصداً قصد هفتواذ. فلما دنا بعضهم من بعض كادت الأرض تمور من كثرة العساكر فقامت الحرب بينهم على ساق، وجرت بينهم وقعة عظيمة. ولما أمسى أردشير تأخر ونزل. ثم إن هفتواذ أخذَ عليه الطرق من جميع جوانبه، وضاق على عسكره الطعام حتى جهدوا. وبلغ أردشير أن صاحب جهرم المسمى مِهرك هجم على مدينته المستحدثة التي تسمى أردشير خُرّه فنهبها واستولى على ذخائره وخزائنه بها. فضاق أردشير بذلك ذرعاً، واستحضر أصحابه وشاورهم في حاله، وفاوضهم فيما دهاه من مهرك. ثم أمر بمد السماط فوضع بين يدي أردشير حملاً مشويّاً. فلما اشتغل الحاضرون بالأكل جاءت نشابة حتى وقعت في الحَمَل الذي بين يدي أردشير. فاستعظموا ذلك وكفوا أيديهم عن الطعام. فقام بعضهم ونزع النشابة من الحمل فوجدوا عليها كتابة فهلوية فقرئت فإذا فيها ذكر أن النشابة رُمي بها من القلعة، ولو أراد راميها أن يصيب بها أردشير لتيسرَ له. وفي الكتابة: اعلم أيها الملك العالِم! أن ثباتَ هذه القلعة من سعادة الدودة. ولا ينبغي لشهريار مثلك أن يكون من قتلاها. قال: وكان ما بين القلعة ومنزل أردشير مسافة فرسخين. ففرح أردشير وحمد الله وشكر مرسل تلك النشابة. فارتحل راجعاً إلى فارس فأتبعه عسكر هفتواذ، وقتلوا من أصحابه خلقاً كثيراً، وتفرق الباقون آخذين نحو بلادهم. ووضع أردشير في جماعة من خواصه إلى قرية فصادف رجلين من أهل تلك القرية فقال لهما: في أي طريق أخذ أردشير؟ وكيف عبر؟ وقصد بذلك التعمية عليهما. واسترشدهما عن الطريق فأرشداه إليه، ودعواه إلى ضيافتهما. فنزل أردشير ودخل إلى منزلهما فقدما إليه طعاماً، وطفقا يحدثانه ويلاطفانه ويهوّنانِ عليه أمرَ هفتواذ، وأنه سوف يخمُد جمرُه وتركدُ ريحه. فَعَلِقَ كلامُهُما بقلبه واستحسنه فأخبرهما بنفسه. فوثبا وقبّلا الأرض بين يديه. فخاضوا في حديث هفتواذ واستيلائه على ذلك الطرف واستظهاره بالعدد والعُدد، فقالا: أيها الملك! إن الدودة التي استعلى بها أمرُ هفتواذ شيطان لا يقاومه أحد، ولا يمكن الظفر بها إلا بالحيلة. فليفكر الملك في ذلك. فركب الملك من تلك الضيعة وتوجه نحو أردشير خُرّه، واستصحب الرجلين.

فلما وصل إليها جمع عسكره، وأطلق أرزاقهم، وركب وسار نحو مدينة جهرم قاصداً قصد مِهرك الغادر. فلم يقدر على الثبات بين يديه فهرب. فنزل أردشير في جهرم وأرسل وراءه الطلبة حتى ظفر به فقتله وقتل جميع من كان ينتسب إليه من أولاده وأقاربه، ولم يهرب منهم سوى بنت له، فإنها نجت ولم يظفر بها.

ثم إنه سار من ذلك المكان في اثني عشر ألف فارس حتى نزل على منزل من قلعة هفتواذ. وسلم العسكر إلى بعض أمرائه وأوصاه بحفظهم وبأن يبث الطلائع ويفرّق الجواسيس. وقال: إني أريد أن أحتال حيلة لقتل هذه الدودة اقتداء بجدّي إسفنديار في قتل أرجاسب فإذا أخبرك الديدبان بأنه شاهد بالنهار من القلعة دخاناً وبالليل ناراً فانهض في العسكر حتى تنتهي باب القلعة. ثم استحضَر دواب وأوقرها بالثياب والجواهر والذهب والفضة، وحمل قدراً كبيرة من الحديد مع جملة من الرصاص والنحاس، واستصحب طائفة من ثقاته وفيهم الفلاحان اللذان أضافاه. ولبسوا ملابس الصوف، وتوجهوا نحو القلعة في زي التجار. فصعد إليها بأحماله ورجاله. وتيسرَ له النزولُ عند حَرس الدودة ومستحفظيها. وقال: إني تاجر خراساني قد أتيت بجملة من القماش والذهب والفضة والجواهر لأبيع وأبتاع في مدينتكم هذه على سعادة الدودة. ثم قال لهم: إني أريد أن أفتح البيع والشرى بضيافتكم. فكونوا أضيافي ثلاثة أيام. ففعل ذلك وأضافهم. وقال لهم: دعوني أتبرك بخدمة الدودة وإطعامها. قال: فأطعمهم يوماً وسقاهم حتى سكروا وغمرهم السكر أجمعين. فنصب قِدرَ الحديد وأذاب فيما ما كان معه من الرصاص والنحاس، وقدّمها إلى حوض الدودة على مثل عادتهم في تقديم قدر الأرز إذا أرادوا إطعامها. ففغرت فاها فأفرغ ما في القدر في حلقها فانشق حلقومها، وسمع منه صوت عظيم ارتج منه الجبل. وبادر إلى السكارى في أصحابه بالسيوف فقتلوهم عن آخرهم.

وكان الديدبان قد شاهد ارتفاع الدخان بالنهار حين أوقد نار الضيافة فأخبر سالار عسكره فركب وسار بهم إلى القلعة. فوافق وصولهم إليها طلوع الصبح. فلما علم هفتواذ بمجيء العسكر بادر إلى باب القلعة فرأى أردشير عليه كأسد هصور فأحس بالشر. ونزل أردشير وانضم إلى أصحابه، وتناوشوا الحرب ساعة فأسَروا هفتواذ وولده الأكبر سابور. فأمر بهما فصلبا ورشقا بالسهام. واستولى على القلعة وذخائرها ودفائنها فاصطفى البعض لنفسه وفرّق الباقي على عساكره. ثم سلم ذلك الإقليم إلى الفلاحين المذكورين، وعاد إلى بلاد فارس. ثم ارتحل وسار منها إلى شهرزور ومنها إلى مدينة طيسفون وقعد مقعد السلطنة.

ذكر نوبة أردشير بابكان، وكانت مدّة ملكه اثنتين وأربعين سنة

وهو الذي يقال له أردشير بن بابك. وهو أردشير بن ساسان. وبابك جدّه لأمه – كما سبق.

قال: فجاء أردشير بن ساسان إلى بغداد. واعتصب بالتاج وجلس على تخت العاج محيياً معالم الملوك الماضين، وسادا مسد آبائه الأوّلين، كأنه كُشتاسب روعة وبهاء ورفعة وسناء. وتلقب بشاهنشاه.

ومما جرى له أن بهمن بن أردوان الذي هرب عند مقتل أبيه دس إلى أخته التي كانت تحت أردشير قطعة سم على يد بعض ثقاته وأمره أن يقول لها: لا تشفقي على عدوّك وقاتل أبيك، ولا تقطعي حنوّك على أخيك، وإذا أمكنتك الفرصة في زوجك فانتهزيها وأطعميه من هذه الهُلاهل. فلما أتاها الرسول برسالة أخيها تحرّقت عليه وعلى سائر إخوتها الذين قسمتهم يد الأسر والنهب. فأخذت السم الذي أتاها به الرسول. فاتفق أن أردشير ركب يوماً إلى الصيد، وعاد وقت الظهر وقد نال منه العطش والحرّ. فأخذت جاماً من الياقوت الأصفر، وجعلت فيه سويقاً وسكراً، ودست فيه شيئاً من ذلك السم، وناولته الملك. فلما تناوله وقع من يده وانكسر وتبدّد ما فيه. فانزعجت المرأة من ذلك وارتعدت. فنظر الملك في وجهها فاتهمها وساء ظنه، واستحضر أربع دجاجات على ذلك السويق. فلما تناولن منه متن للوقت والساعة. فتعجّبَ الملك من تلك الحالة، وجعل يقول: من رَبّى الكاشح حتى يسكُرَ من النعمةِ والترف لم ير منه غير الهلاك والتلف. فاستحضر وزيره وقال له: ما جزاء هذه الغدّارة؟ فقال: أن يقطع رأسها حتى يَعتبرُ بها غيرُها. فأمَرَهُ أن يرميها في بئر





ويطمها عليها. فأقبل الموبذ بها ليمضي فيها أمر الملك. فلما خرج بها قالت له: إني مشتملة على حمل من الملك. وإن أكن مستحقةً للقتل فما جرم هذا الجنين؟ فأمهلني حتى ألد ثم امتثل ما أمرت به. فعاد الموبذ إلى الملك وأخبره بذلك. فقال له: لا تسمع كلامها وافرغ منها سريعاً. فعظم ذلك على الموبذ وقال في نفسه: إن الملك ليس له ولد، وإنه وإن طال عمره فمصيرُه إلى الموت، ومهما لم يكن له ابن انتقل ملكه إلى عدوّه. فالأولى أن أستعمل الرفقَ في أمر هذه المرأة وأستأنى بها حتى تضعَ حملَها ثم أمتثلُ فيها أمر الملك. فإن ذلك أمر لا يفوتني. ولأن أتبع العقلَ خير من أن أتبع الجهل. فحملها إلى بيته وأخلى لها موضعاً. وأمر زوجته بخدمتها والقيام بأمرها وإخفاءِ سرها. ثم إنه تدبر وقال في نفسه: إن هذا الأمر يطلق فيّ ألسنة الأعداء، ويوقفني في مواقف التهم. والأولى أن أتحرز من ذلك. فانفرد وجَبَّ نفسَه مُستأصلاً أنثييه(1) وصاحبهما، ونثر عليها الملح، ووضعَها في حُقّةٍ وختمها وكتب عليها تاريخ يومه. ثم كوى موضِعَ الجُب. فضَعُفَ واصفرّ لونه. وأراد الدخول على الملك فأمر فحُمِل في مهد، وأقبل حتى دخل على الملك. فلما رآه ورأى ما به من الضعف سأله عن حاله. فقال: إني لما أمضيت ما أمرني به الملك هالني ذلك وغمرتني الرقة فضعفت، وحال لوني. ثم قال: وهذه الحُقّةُ وديعتي. فليأمر الملك الخازن بحفظها. فسلمها إليه.

قال: ثم هذه المرأة وضعت ابناً كأنه ملك قاعد على تخته. فأخفاه عن الناس وربّاه حتى شَبَّ وترعرع وأتتْ عليه سبع سنين. فاتفق أنه دخلَ ذاتِ يوم على الملك فصادفه واجماً مهموماً. فقال: أيها الملك! ما هذا الهم؟ وهذا أوانُ نشاطك وسرورك حين ملكت الأقاليم وبلغت من الملك غاية السؤل. فقال: أيها الناصح! إن مُلكَ العالم قد استقامَ لي، وقد أتى عليّ من العمر إحدى وخمسون سنة، واشتعل رأسي شيباً وصار مسك عارضي كافورا، وليس لي ابن يخلفني ويرثني الملك. فأنا أتأسف على الملك وأخاف انتقاله بعدي إلى العدوّ، وألا يبقى معي غير الحسرة والتعب. فانتهز الوزيرُ فرصةَ الكلام وقال: إن وجدتُ الأمان على روحي أرحتُ الملك من هذا الهم. فقال: أي شيء يكون أنفع من رأي الحكماء؟ فأعربْ عما في ضَميرك ولا تَخف. فقال: إني لي عند الخازن أمانة. فأشر إليه بإحضارها. فأحضر الحُقة. فسأل الملكُ عما فيها فقال: إن الذي فيها مادة حياتي. وإني لما أمرتني بقتل ابنة أردوان أطعتُ الله وخالفتُ أمرك لمكانِ حملها. فجَبَبْتُ نفسي حتى لا يَسوءْ ظن العدوّ بي، ولا أقع في بحر الريبة والتهمة. وقد رزقك الله أيها الملك !إبناً، وهو الآن ابن سبعُ سنين، سميتُه سابور. وأمّهُ بعد باقية تُربيه. فتعجب الملك من ذلك وقال: أيها الناصح الشفيق! تحملت عناء عظيماً. وستجد ثمرته. فأخرِج هذا الصبي إلى الميدان ما بين مائة غلام يساوونه في القدّ والسن والزي، مُرْهم باللعب

الساسنيون

226 – 652م

هذا القسم من الشاهنامه يعدّ تاريخاً وإن ضمن كثيراً من الأساطير. فكل الملوك المذكورين فيه يعرفهم التاريخ على النسق الذي في الكتاب، ويعرف كثيراً من مآثرهم وأخبارهم المسطورة فيه. ولكن في الكتاب أساطير ينكرها التاريخ، وفيه أغلاط في سني الملوك، وفي نسبة الوقائع إلى أصحابها.

وتاريخ الساسانيين معروف، وفي الكتب العربية كثير من أنبائهم وأقوالهم وآدابهم ورسائلهم وأساطيرهم. فلست أجد هنا حاجة إلى البيان الذي لم أجد منه بداً في الفصول السابقة.

وحسبي أن أقول هنا: إنها دولة دامت أربعة قرون، وامتدّ سلطانها على إيران وما صاقبها(1)، وساجلت الرومان الحرب نزاعاً على الجزيرة وسورية عصوراً متطاولة، وإن لها أثراً في الحضارة لا ينكر ولا سيما وصلها حضارة المشرق القصيّ بحضارة الساميين والأوربيين، وإنها جمعت الفرس تحت سلطان واحد بعد أن فرّقتهم الحادثات أكثر من خمسمائة عام – منذ غلب الاسكندر المقدوني على ديارهم حتى استقل أردشير بأعباء الملك، وإنها بعثت دين زرَدُشت وجمعت بين الملك والدين جمعاً له أثر بيّن في تاريخها، فكان أردشير يرفع قواعد الدولة والدين معاً، ودعاته يدعون له باسم الدين والسياسة. ولا تزال رسالة تنسَر إلى ملك طبرستان ناطقة بهذا.

ويرى القارئ أن الفردوسي يوجز الكلام في هذا القسم إذ كان ينظم ما يجد، ولم تفسح له الأساطير مجال القصص هنا إفساحها في الأقسام السالفة.

(1) جاورها.

بالكرة والصولجان حتى أخرجَ أنا إلى الميدان وأنظر هل أعرف ولدي من بين هؤلاء الصبيان. ففعل الوزير ذلك. ولما دخل أردشير الميدان ورأى الصبيان يتلاعبون عرف ولدَه سابور، وتنفسَ الصعداء، وأشار إليه بيده وقال للوزير: هذا ولدي. ثم أمر بعض غلمانه أن يتوسط الصبيان ويلعب معهم ثم يسلب منهم الكرة ويرميها إلى ما بين يدي الملك. ففعل الغلام ذلك، فلما حصلت الكرة في موكبه لم يتجاسر أحد من الصبيان على التقدّم لأخذها سوى سابور. فإنه هجم ولم يحجم، وتقدّم غير مفكر، وأخذ الكرة من بين يدي أردشير وعاد بها إلى أترابه. فتهلل وجه أردشير حتى كأنه عاد إلى عوده ماء الشباب. فبادره الفرسان فأخذوه من الأرض وجاءوا به إلى أردشير. فاعتنقه وضمه إلى صدره، وقبّلَ ما بينَ عينيه، وعادَ به إلى إيوانه. ثم أمر فنثروا عليه من الدرّ والياقوت ما غمر الصبي وعلاه حتى غطى وجهه. وعمل مثل ذلك مع الوزير، وأكرمه إكراماً عظيماً حتى بلغ به إلى أن أمر أن ينقش اسمه على إحدى صفحتي الدينار والدرهم واسم الملك على الصفحة الأخرى. وعفا عن ابنة أردوان وأمر بردّها إلى مكانها. ثم سلم سابور إلى المعلمين فعلموه الآداب الشاهنشاهية والمراسم السلطانية. ثم أمر ببناء مدينة على اسم ولده سابور. وهي التي تسمى جند يسابور.

قال: فكبر سابور وكان لا يفارق خدمة أردشير ساعة، وصار له وزيراً ودستوراً ومدبراً ومشيراً. وكان هو وأبوه لا يستريحان ساعة من مقاتلة الأعداء والركض إلى أطراف البلاد في حسم مادتهم ودفع عاديتهم. وكان كلما دفع عدوّاً من جانب ظهر له عدوّ من جانب آخر. فقال أردشير ذات يوم لوزيره: إني أسأل الله تعالى أن يملكني الأقاليم ويطهر ساحة الأرض ممن ينازعني في الملك حتى أتفرّغ لعبادته تعالى وتقدّس. فقال له الوزير: أرسل إلى «كيد» صاحب الهند فإنه رجل عالم يخبر عن الأحوال الكائنة، وسَلْهُ متى تحصل لك هذه السعادة. فكتب إليه وسأله عن ذلك فأجاب وقال: إذا حصل امتزاج بين نسلِ الملكِ ونسل مِهرَك بن نوش زاد استراح الملك حينئذٍ واطمأن في مستقر الملك، فينقص تعبه وعناؤه وتنمو كنوزه وأمواله، ولا يحتاج إلى تجهيز جيش، ويفرغ لكل لهو وعيش. فعظم ذلك على أردشير وقال: لا كان يوم أحتاج فيه إلى مواصلة العدوّ. ونفذ عند ذلك إلى جهرم في طلب ابنة مهرك التي هربت. فلم يقدر عليها، والتجأت إلى بعض الضياع واختفت.

(1) المقصود: أخصى نفسه.

ذكر نوبة بهرام بن يزدجرد المعروف ببهرام جور

بهرام كور أو بهرام الخامس وُلّي (420 – 438م) وذلك يوافق رواية الطبري والبيروني أنه حكم ثماني عشرة سنة وعشرة أشهر وعشرين يوماً ويخالف رواية أخرى في الطبري ومروج الذهب أنه حكم ثلاثاً وعشرين سنة. وقد أطالت الأساطير حكمه وسيرته، كما في الشاهنامه، إذ كان ملكاً شجاعاً محبباً إلى رعيته فاخترعوا له قصصاً تبين عن مكانته في نفوسهم، كدأب العامة مع كل ملك عظيم أو بطل كبير.

وكان بهرام موفقاً في سياسته فقد صالح الروم على شروط عادلة بعد أن هزموا جيشه. وهزم الهياطلة. وساس رعيته عادلاً لا يحابي، وحث الناس على الزراعة وأعانهم عليها، ونفّق العلوم والآداب. ولم يمنعه حب اللهو والصيد أن يؤدي ما يجب عليه. ولما مات كانت فارس في أوج عظمتها.

وقد ذكرت سيرة بهرام في صباه وتربيته بين العرب في الحيرة. وقد بقيت ذكرى هذا في الأدب الفارسي والعربي. فالفرس يقولون أنه أوّل من قال الشعر، وأنه أخذه عن العرب، ويروون له أبياتاً فارسية. والعرب يروون من شعره العربي والفارسي.

حكاية

ذكر صاحب الكتاب أن بهرام كان ذات يوم جالساً بين ندمائه وجلاسه فدخل عليه بعض أكابر أهل القرى بأحمال من الفواكه. فأكرمه بهرام وأجلسه بين أصحابه. فرأى قدحاً فيه خمسة أمناء من الشراب فأخذه وقال: أشربُ سبعة أقداح من هذه ولا أسكر، وأرجع صاحياً إلى ضيعتي. ففعل ذلك غير مكترث بكثرته. ثم استأذن الملك وخرج منصرفاً إلى ضيعته، وسار في طريقه فغلى الشراب في صدره فلم يطق الركوب. فعدل عن الطريق إلى ظل شجرة فنام وغمره النوم والسكر. فنزلت عليه غربان سود من الجبل فاقتلعن عينيه. وأتاه أصحابه فوجدوه ميتاً مفقوء العينين، وفرسه مربوطاً بين يديه. فأنهوا خبره إلى الملك فعظم ذلك عليه فحرم الخمر عند ذلك وقال: لا يشربها وضيع ولا شريف. وصار الملك إذا جلس في مجلس الأنس يحضر عنده كتب الملوك وتواريخهم وسيرهم فيشتغل بذلك عوضاً عن الشرب. فمضت سنة على ذلك فاتفق أن تزوّج ابن إسكاف بامرأة ذات مال وجمال. فلما كانت ليلة الزفاف أخرجت أمه قطعة شراب كانت قد خبأتها. وقالت لابنها: اشرب من هذه سبعة جامات فلعلك تفض الليلة الختم، ولا تقرف بين عشيرتك. فشرب الإسكاف منها سبعة أو ثمانية فاشتدّت عروقه وأعصابه. ولما أسبل عليه حجابه تفتح دون مراده بابه. فخرج إلى باب داره وهو سكران فرأى أسداً قد قطع السلاسل وأفلت فوثب على ظهره، وعلاه واستمسك بأذنيه. فجاء السبّاع وبإحدى يديه السلسلة وبيده الأخرى الحبل يريد إمساكه فرأى الإسكاف على ظهره كراكب حمار. فانصرف ودخل على الملك وأعلمه بذلك. فقضى بهرام منه العجب فقال لبعض موابذته: كأن هذا الإسكاف ينتسب إلى أصل كريم. ففتش عن نسبه وأخبرني عنه. ففتش عنه فإذا به قد ورث صناعته أباً عن جد، وكل آبائه أساكفة. فلما طال في بابه الحديث حضرت العجوز وأعلمت الملك بما جرى. فضحك وحلل الخمر، وأذن أن يشرب منها مقدار ما يتقوّى به شاربه حتى يصير بحيث يقاوم السباع، ولا يسرف حتى يصير شاربها عرضة للغربان وأشباهها. فارتفعت أصوات البشائر بتحليل الراح والترخص في إدارة الأقداح وجلب السرور والأفراح.

حكاية أخرى

قال صاحب الكتاب: وخرج ذات يوم إلى متصيده ومعه جماعة من موابذته ووزرائه وخواص حضرته. فاعترض الموكب فلاح وبيده مسحاة، وسأل عن الملك فسأله موبذ عن حاله. فقال: لست أتكلم حتى أرى وجه الملك. فأتوا به الملك فقال: إن معي سراً أريد أن أبوح به إليك. فثنى بهرام عنانه، وعدل عن الطريق وخلا بالفلاح. فقال له: أيها الملك! إني كنت أسقي زرعاً في هذه الأرض فامتلأ القراح ماء فإذا بثقبة في وسط الأرض ينزل فيها الماء ويسمع منه صوت يشبه صوت الصنج. وكأن المكان فيه كنز. فمضى معه الملك إلى ذلك المكان، وضربت له خيمة هناك فنزل. وأحضر الفعلة فأمرهم بحفر ذلك المكان فانتهوا إلى أزج مبني بالآجر والنورة. فظهر له باب ففُتح ودخل فيه موبذ مع شخص آخر فرأيا بيتاً واسعاً وإذا بجاموسين مصوغين من الذهب الأحمر مربوطين على معلف كبير من الذهب مملوء من الزبرجد والياقوت مخلوطاً بعضه بالبعض، وقد ركبت في عيون الجاموسين يواقيت تتقد كالحجر، والجاموسان مجوّفان مملوءة أجوافهما باللآلئ الشاهية، وحواليهما تماثيل كثيرة قد صيغت على صور السباع واليعافير والتذاريج والطواويس مرصعة بالجواهر واليواقيت. فخرج الموبذ وهو ممتلئ فرحاً وسروراً فقال لبهرام: أيها الملك! قد أعطيت كنزاً من الجواهر لم ير ولم يسمع بمثله. فقال له بهرام: من كنز كنزاً فلا بد أن يكتب عليه اسمه. ففتش فلعلك تجد اسم صاحب هذا الكنز مكتوباً في شيء. فدخل الموبذ فرأى ختم جمشيذ عليهما. فخرج وأعلم بهرام بذلك. فقال للموبذ: أيها العالم العاقل! مالي أفرح بكنز كنزه جمشيذ من قبل؟ لا كان مال لم يعن بجمعه السيف والعدل. وأمره أن يفرق جميعه على الفقراء والمحتاجين والمدينين والغارمين، بعد أن يسلم عشره إلى الفلاح الذي دل عليه. وقال: لا حاجة لعسكرنا إلى تفرقة هذا المال عليهم. فإن الجواهر ليمكن تحصيلها وابتياعها من الأرامل وعجزة الرجال. وينبغي أن يكنز الملوك ذكراً جميلاً، ويدخروا أجراً جزيلاً. ثم رجع وفتح أبواب كنوزه ودفائنه التي أخذها من الأعداء بسيفه، وجمعها بعدله، ففرّقها على عساكره حتى أغناهم أجمعين. وقال: معاذ الله أن أكنز دفائن الماضين، وأفرح بما خلق للفناء أو أفتخر إلا باكتساب المجد والسناء. فدعا له الحاضرون وقرّظوه وشكروه وحمدوه.

حكاية أخرى

ذكر صاحب الكتاب أيضاً أن بهرام خرج يوماً إلى الصيد فانفرد من أصحابه فرأى ثعباناً عظيماً كأنه سبع ضار. في رأسه شعر طويل بطول قدّه، وله ثديان كثديَيْ النساء. فوتر قوسه ورماه بنشابة أصابت رأسه فسقط. فنزل عليه وشق بالخنجر صدره فإذا برجل شاب في جوفه قد ابتلعه. فرق له قلب بهرام حتى بكى. فأظلمت عينه من بخار سمه. فركب كما هو، ومضى حتى انتهى إلى ضيعة. فرأى امرأة على باب دار وبيدها جرّة تريد الماء فغطت وجهها من بهرام. فقال لها بهرام: هل عندكم من مبيت؟ فقالت المرأة: الدار دارك فانزل. فدخل بفرسه الدار. فدعت المرأة بزوجها وقالت له: اربط فرسه وامسح ظهره وقدّم له تبناً. ودخلت مجلساً له وكنسته وفرشت حصيراً ووضعت مخدّة. فدخل بهرام وتمدّد مستريحاً مما عاناه من مقاتلة الثعبان وقتله وما خامر دماغه من روائح سمه. فقدّمت المرأة إليه طبقاً من خلاف عليه خل وبقل ولبن وخبز فتناول منها لقيمات ونام. فخلت المرأة بزوجها وسارته وقالت: أيها القبيح الوسخ! إن هذا الفارس أمير كبير فاذبح له حملاً. فامتنع وتعلل بالفقر والعجز. فلم تزل به حتى أجاب وذبح له حملاً كان في بيته فطبخته وقدّمته إليه بالعشى فأكل بهرام وغسل يده. وكان منكسر البدن من أثر التعب فقدّمت إليه بقطينة فيها شراب مع قليل من الغبيراء برسم النقل. فأخذ بهرام يشرب ثم قال للمرأة: حدّثيني حتى أشرب على حديثك. ثم قال لها: كيف حالكم مع هذا السلطان؟ فقالت: إنه لا جور علينا من الملك ولا حيف سوى أنه يأخذ من كل جانٍ يجني خمسة دراهم. وليس منه تحامل علينا إلا من هذه الجهة. فاستقل الملك ذلك المقدار وأضمر الزيادة عليه.

وذكر غير صاحب الكتاب أنه رأى بستاناً كبيراً عند دارها فسألها عن خراجها ومقدار ما عليها كل سنة. فقالت: للسلطان كل سنة على هذا البستان وعلى أمثاله خمسة دراهم. أو كما قال. فاستقل بهرام المقدار المذكور في نفسه، ونسب عماله إلى التقصير في حقه، ونوى الكشف من عنده وأن يزيد في مقداره، فنام على هذه النية الظالمة. ولما أصبح أرادت المرأة أن تصلح له لبنية فقامت إلى بقرة كانت لها لتحلبها فمسحت ضرعها فلم تدرّ ووجدت ضرعها خالياً من اللبن. فقالت لزوجها: إن قلب السلطان قد تغير، وكأنه قد نوى سوءاً وأضمر ظلماً. فقال لها الزوج: ما هذا التطيّر؟ فقالت: أما تعلم أن الملك إذا صار ظالماً جف الألبان في الضروع، ولم يأرج المسك في النوافج، وشاع الزنا والربا في الخلق، وصارت القلوب قاسية كالحجر الصلد، وعاثت الذئاب وضريت بالإنس، وتخوّف ذوو العقول من ذوي الغواية والجهل. ولولا حدثَ حدثٌ لما تغير لبنَ هذه البقرة الحلوبة. فلما سمع بهرام ذلك من المرأة ندم على ما أضمر واستغاث في سره إلى الله تعالى وتاب عما عزم عليه. ثم عادت المرأة إلى البقرة تسمي الله تعالى، ومسحت ضرعها فدرت بلبن غزير. ففرحت المرأة وقالت: إنك يا مستغاثَ الخلق! قد قَلَبتَ الظالم عادلاً حتى عاد لي ضرع هذه البقرة حافلاً. فحلبت وأصلحت لبنية وقدّمتها إلى ضيفها فطعم متعجباً من الحالة التي شاهدها. ثم قال للمرأة: خذي هذه السوط وعلقيها على قضيب من الشجرة التي على باب الدار. ففعلت فإذا بعسكر بهرام مقبلين. فلما رأوا السوط نزلوا وقبلوا الأرض واجتمعوا على باب الفلاح. فعلمت المرأة وصاحبها أنه الملك وعادا إلى إيوانه، وقبّلا الأرض بين يديه، واعتذرا إليه برثاثة حالهما وضيق أيديهما. فقبل عذرهما وأحسن إليهما، ووهب لهما تلك الضيعة، وأوصاهما بإطعام الأضياف. وركب منشرح الصدر مسروراً. والسلام.

ذكر نوبة كسرى برويز بن هرمز بن كسرى أنو شروان وكانت مدّة ملكه ثمانيا وثلاثين سنة

وكان من أشدّ ملوكهم بطشاً، وأثقبهم زنداً، وأبعدهم غوراً. وبلغ، فيما ذكر، من البأس والنجدة والنصرة والظفر وجمع الأموال والكنوز ومساعدة القدر إياه ما لم يتهيأ لغيره من ملوكهم. ولذلك سمي برويز. وتفسيره المظفّر. قال: فتسنم برويز تخت السلطنة، واحتفل له الناس، على ما جرت به عادتهم. فوعظهم ونصحَهم

كسرى الثاني الملقب برويز ملك ثمانياً وثلاثين سنة (590–628م). وهو آخر ملوك الفرس الكبار، وعهده في الشاهنامه من أطول العهود، مليء بالقصص الممتعة، والغير العظيمة ذات الأثر البليغ في الأدب الفارسي. وقد بلغ من سعة السلطان ما لم يبلغه ملك فارسي منذ دارا الأوّل؛ فقد استولى على مصر والشام وسائر ما كان يملكه الروم في آسيا وعسكرت جنوده على شاطئ البسفور. ولكن بسطة السلطان هذه انقبضت في آخر حياته. وقد عاصر ثلاثة من ملوك الروم، كجدّه أنوشروان.

وفي أيام برويز كانت وقعة ذي قار، ولكن الشاهنامه تغفلها.

وكان برويز، كأبيه وجدّه، مُحسناً إلى النصارى، بل بذّهما في هذه السبيل. وسيأتي في حواشي هذا الباب أنه كان يرسل الهدايا إلى كنيسة القدّيس سرجيوس بالرصافة.

وقد اضطرّ في أوائل عهده البطريق الهرم سبرإشو إلى مصاحبة جيشه ليباركه. وكان لشيرين، وهي نصرانية، عليه سلطان عظيم، وقد بنت كنائس وديوراً. ولكن هذا العطف على النصرانية انقلب إلى ضدّه حين ثارت الحرب الطاحنة بين برويز والرومان.

ووعدَهم من نفسه بكل خير، وأنه يسير فيهم بسيرتي كرم وعدل. فدعا له الحاضرون وأثنوا عليه وقاموا مسرورين، وله حامدين وشاكرين.

وكان برويز موجع القلب متألماً لما جرى على أبيه. ولما أمسى من يومه ذلك دخل عليه فسجد له وكفر بين يديه، وقال: أيها الملك! إنك تعلم أني لو كنت في خدمتك لم يتجاسر أحد على أن يغرز إبرة في إصبعك فضلاً عما جرى عليك. لكني من خوف القتل فارقت حضرتك. والآن إن رسمت لم أحُم حول التاج والتخت، وقمت على رأسك ما عشت. فصدّقه أبوه وقال: إن لي إليك ثلاث حاجات: إحداها أن تسمعني صوتك كل صباح. والثانية أن تنفذ إليّ رجلاً عالماً بالحروب والتواريخ حتى يلازمني ويؤنسني بالقصص والحكايات. والثالثة أن تنتقم ممن أقدم على خلعي وسمل عينيّ. فسمح له بالحاجتين. وأما الثالثة فقال: أيها الملك! لا يخفى عليك أن بهرام قد أطل علينا، وله من الشوكة والقوّة ما تعرفه. وأنا إن مددت يدي الآن إلى كُستهم انقلبت علينا الأرض ظهراً لبطن. ولا أقدر على ذلك في مثل ذا الوقت. وأنت فصبّر نفسك، واعلم أن ذلك حكم إلهي، وقضاء سماوي جرى به قلم التقدير في الأزل. فقام والدموع تجري على خديه، وخرج من عنده مستتراً بحيث لم يطلع على دخوله عليه أحد.

وأما بهرام فإنه لما سمع بأنه هُرمُزد كحل وخلع، وأن برويز رجع وقعد مقعده من سرير السلطنة خرج من الري وساق العساكر فلم يحس به إلا وهو نازل بالنهروان. فخرج برويز من طَيسفون في جموعه وجنوده. وقال: الرأي أن أقرب منه وأكلمه وأستعطفه وأستميله. فلعله يجنح معنا إلى السلم فنوليه بعض الأقاليم ونستريح من حمل أوزار الحرب. فسار إلى شط النهروان في قوّاده وخواصه. وتبدى بهرام في ذلك الجانب في أمرائه ورجاله. وكان معه ثلاثة من الأتراك الشداد الخاقانية. وقد وعدوه بأنهم يقتلون برويز. قال: فوقف برويز من هذا الجانب، وبهرام من ذلك الجانب، وبينهما الماء. فقال بهرام لأصحابه: انظروا إلى ابن الفاعلة كيف ترعرع وعبلت أكتافه، وبسقت أطرافه، وتوشح بالعذار خدّه! فسأل برويز أصحابه عن بهرام. فقال له أخ لبهرام يسمى كُردويَه، وكان يخدم برويز ويختص به: إنه صاحب الفرس الأبلق. فناداه وقال: يا بهرام! إنك عماد دولتنا، وسند بيتنا. ونحن نستظهر بك ونريد أن نوليك سالارية عساكرنا، ونقدم على جميع أمرائنا وإصبَهَبذينا. فأجابه بهرام بالسفه وقال: لكني أريد أن أصلبك. فعظم ذلك على برويز حتى اصفر وجهه. وكظم الغيظ، وعاود مداراته ومراعاته وملاطفته في الخطاب والجواب. وبهرام مستمرّ في غلوائه لا يزيد على الخنا والهجر شيئاً؟ وأطال صاحب الكتاب نفسه في حكاية ما تخاطبا به وأفاضا فيه؟ قال: فرجع برويز إلى مخيمه، وعزم على أن يبيّت بهرام. فاجتمع بوجوه أصحابه وشاورهم في البيات. فقال له كُستهم: اعلم أيها الملك! أن عساكرك كلهم في الباطن مع عسكر العدوّ. لأنهم أولادهم وإخوتهم. وهم معك بمنزلة القميص من البدن؛ متصلون بك ومنفصلون عنك. فهو يسبقنا إليه لا محالة. فقال كُردويه: المحذور قد وقع. وهذا الخبر قد استفاض بين العسكر. وليس من المصلحة مقام الملك في هذا المكان. فليركب مع رجاله، وليترك المخيم بما فيه من أثقاله ورحاله. فركب برويز مع أمرائه وقوّاده، وصعد إلى تل وأقام عليه ينظر إلى المعسكر. وأما بهرام فإنه جلس في سرادقه، وقال لأصحابه: كل من كان له منكم أخ أو أب أو قريب فليكتب إليه وليأمره بالانقياد لأمرنا والانحياز إلى حملتنا. ففعلوا فأجابوهم وقالوا: إنا لا نقدر أن ننحاز إليكم إلا عند اللقاء. فأعلم بهرام بذلك فانتخب ستة آلاف فارس، وجعل عليهم الأتراك الثلاثة المذكورين. فساروا وهجموا على مخيم برويز، وانقضّوا عليهم. فارتفع صليل الأسياف على الأعناق وطنين البَيض تحت البِيض الرقاق. وكان برويز واقفاً على التل ينظر إليهم. فلما أضاء النهار رأى ذلك الفضاء مملوءاً بجثث أصحابه مغرقين في الدماء، مجدّلين بالعراء. فقال لأمرائه: خوضوا غمرة الهيجاء، وأعينوني بالوقوف ساعة. وخاض بنفسه الحرب، وركض إلى أن قرب من الأتراك الثلاثة فرفع أحدهم سيفه ليضرب رأس برويز. فرفع المجن على رأسه وضربه من تحته ضربة أبانت رأسه. وصاح على أصحابه وأمرهم بالوقوف. فلم يلتفت إليه منهم أحد، وولوا ظهورهم وتركوه وحيداً. فثنى عنانه ورجع وراءه وإذا ببهرم قد لحقه. فالتقيا وأخذا يتضاربان ويتصاولان إلى أن زالت الشمس. فالتفت إلى كُستهم وقال: الانهزام خير في هذا المقام. فإنا عشرة أنفس، ولا نقدر أن نصابر هذا الجمع الكثير. فرجع قاصداً للعبور على جسر النهروان. فلما توسط الجسر رأى بهرام خلفه كالأسد الثائر. فوقف وأخذ القوس ورماه بسهام عدّة



حتى أصاب نحر فرسه فترجل. وتقدّم يلان فرمى برويز فرسه أيضاً فترجل. وانصرف بهرام عن الجسر فأمر برويز فقطع الجسر، وعاد إلى هذا الجانب.

ورجع مهموماً محزوناً حتى دخل طَيسفون. وأمر بترتيب أسباب الحصار وحفظ الأبواب والأسوار. ودخل على أبيه وسجد له ثم أعلمه بالحال وما جرى بينه وبين بهرام. وذكر أن أصحابه انهزموا، وأن العدوّ قد جاء خلفه إلى جسر النهروان. وقال: إن أذن الملك التجأت إلى العرب واستعنت بهم عليه. فقال: «إن هذا بعيد من الصواب. فإن العرب ما لهم عدّة ولا خزانة. وإن كان ولا بد من الالتجاء والاعتصار فالأولى أن تقصد قيصر ملك الروم فتدخل عليه وتستجير به. فإنه من الشجرة الفريذونية فهو نسيبك. وعند الشدائد تذهب الأحقاد وترق الأكباد. وهو من أهل الدين، وذوي المال الجم، ومن بيت الملك وأهل الحفاظ ولا بد من أن ينصرك ويعينك». فقبّل الأرض وخرج واجتمع بكستهم وبندويه، وقال لهما: لا بد لنا من الخروج. فاخرجوا بالأثقال والدواب حتى نتوجه إلى بلاد الروم. فبينما هو في هذا الحديث إذ ارتفعت الأصوات من أبراج المدينة بطلوع عسكر العدوّ. فركب وخرج وخلفه خالاه. فتأخرا عنه قليلاً فالتفت إليهما واستعجلهما فقالا: أيها الملك! اعلم أن بهرام يدخل الساعة إلى البلد فيخرج أباك ويقعده على سرير السطنة، ويجعله مِلواحاً، ويشير عليه بأن يكتب إلى قيصر بالقبض عليك وإنفاذك مقيداً مسلسلاً إليه. يلوّحان بذلك إلى إهلاكه. فسكت برويز وساق آخذاً في طريقه. فرجع الخائنان الغادران، ودخلا على هُرمُزد وخنقاه بوتر قوس، وخرجا وسارا خلف برويز حتى لحقاه. فلما رآهما أحس بالحال فاصفرّ وجهه لكن سكت. فقالا: إن الطلب وراءنا فاعدل عن الطريق. فعدلوا عن الجادّة، وأخذوا في طريق البريّة، وساروا إلى أن انتهوا إلى دير عظيم. فدخلوه واستطعموا الراهب فأطعمهم خبزاً فطيراً، وبقلاً، وسقاهم شراباً. فنام برويز ساعة، وحط رأسه في حجر بندويه ليستريح ويريح ثم يركب ويروح...



ذكر قصة شيرين مع كسرى برويز، وحكاية بهربَذ المطرب

قال صاحب الكتاب: كان برويز، في مقتبل عمره وريعان شبابه في حياة أبيه، لا يميل من نسائه وجواريه إلا إلى شيرين. وكانت عنده بمثابة العين الباصرة، لا يثني على غيرها خناصره. فلما ملك اشتغل عنها بسبب ما بلي به من وقائع بهرام جوبين. فلم تكن تخطر بباله لاشتغاله في حاله. فلما انتهت تلك النوبة، وتصرمت تلك النبوة، وقتل بهرام، وارتفعت العوائق والموانع، وتفرّغ الملك، ودار على ما يريده الفلك استمرّ على إعراضه عنها واطّراحه لها. فجعلت تبكي وتجزع، وعلى بعاده تتوجع. فاتفق أنه عزم على الخروج للصيد. وكان من عادته إذا ركب للصيد أن يقاد له ثلاثمائة جنيبة بعدّة الذهب، ويسعى بين يديه ألف وستة وستون راجلاً بأيديهم المزاريق، وألف وأربعون بأيديهم السيوف والعصيّ، ويخرج معه سبعمائة من «البازدارية»، وثلاثمائة من الفهّادين، وسبعون أسداً ونمراً مُعَلَّمةً، مُجلَّلةً بالديباج، مشدودةَ الأفواه بسلاسل الذهب، ويستصحبُ ألفَ عوّاد على رؤوسهم أكاليل الذهب، ومائتي غلام على يد كل واحد منهم مَجمرٌ يوقَدُ فيهِ العودُ والعنبرُ في الموكب، ومائتي نفس من الشبّانِ معهُم النرجسُ والزعفران يتقدّمون

يختلف الرواة في شيرين أهي فارسية أم أرمنية أم رومية؛ الشاهنامه تجعلها فارسية، ويقول صاحب تاريخ كزيده أنها بنت ملك الأرمن. عشقها برويز حين فر من أبيه هرمزد. وبعض الرواة يظنها رومية، ومن هؤلاء من يقول أنها بنت قيصر التي تذكر في الشاهنامه باسم مريم، وأن شيرين محرّفة عن «إيريني» أو «سيرا».

وفي ميرخوند أن شيرين كانت في خدمة أحد أشراف الفرس، وكان خسرو برويز في صباه ينتاب دار هذا الشريف فأحب شيرين وأعطاها خاتماً. فلما علم رب الدار أمر خدّامه أن يغرقها ولكنها نجت ولجأت إلى دير. ولما تولى برويز أرسلت إليه الخاتم فذكرها وأخذها إلى قصره.

وقصة شيرين وخسرو معروفة يرى القارئ بعض حادثاتها في الشاه. ولشيرين قصة أخرى مع عاشق اسمه فرهاد؛ زعموا أنه أحبها فلما سمع برويز بذلك كلفه أن يشق طريقاً في جبل بيستون من جبال كردستان، ووعده أن يهبه شيرين حين يتم عمله. فلما شق فرهاد الطريق أرسل إليه برويز من يخبره كذباً أن شيرين ماتت. وقد ذهب فرهاد مثلاً في العشق كمجنون ليلى.

وقد نظمت قصة شيرين كثيراً بالفارسية والتركية؛ نظم «خسرو وشيرين» من شعراء الفارسية نظامي الكنجَويّ وخسرو الدهلويّ، ومن شعراء التركية شيخي وعطائي وآهي. ونظم «فرهاد وشيرين» من شعراء الفارسيّة وحشي، ومن شعراء التركية نوائي. ونظمها غير هؤلاء. وأشار إليها الشعراء في شعرهم كثيراً. كقول كمال الخُجَندي:

لعل شيرين نصيب خسرو شد   سنك بيهوده مي كند فرهاد

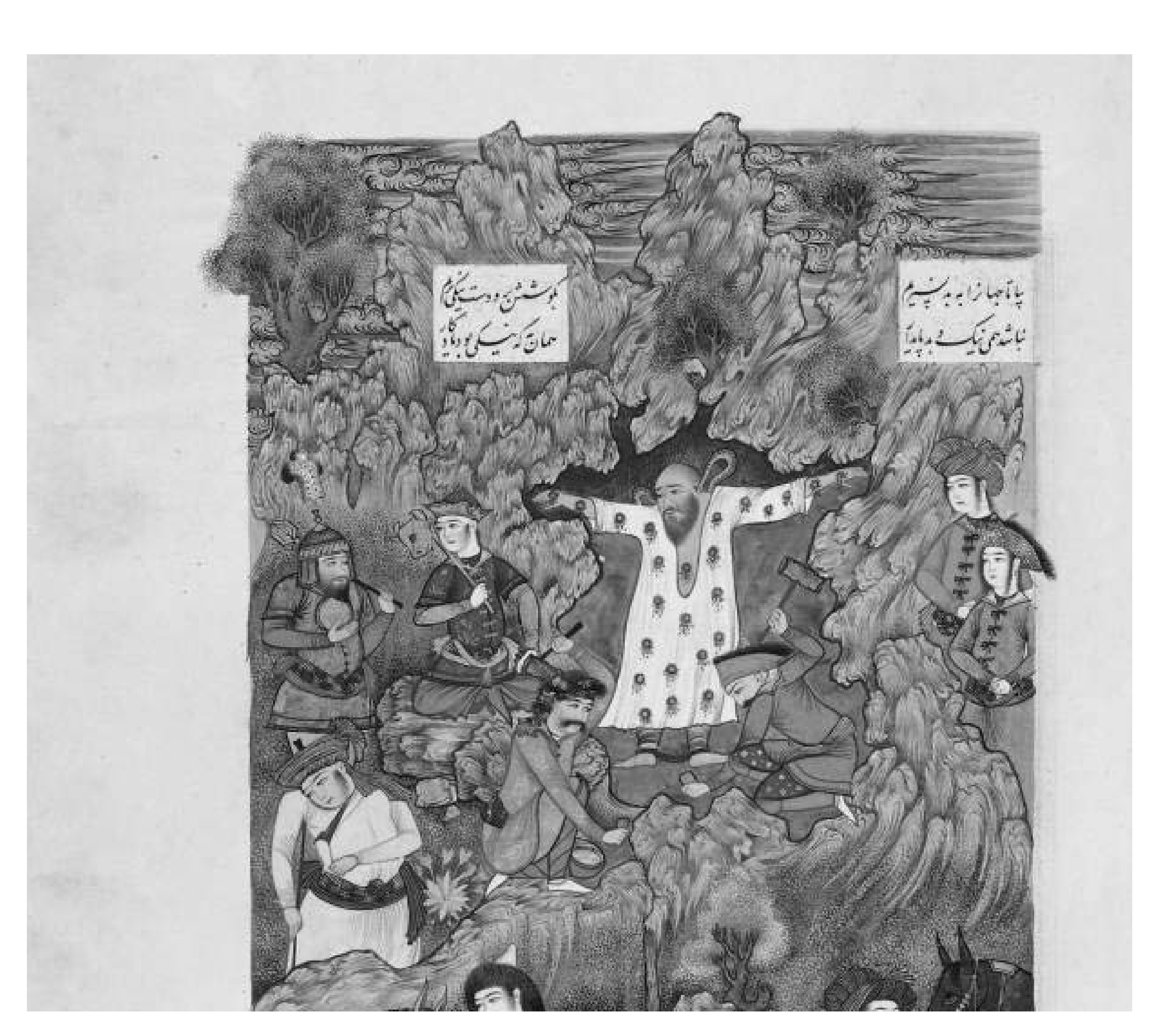
أي: صار عقيق شيرين (شفتاها) نصيب خسرو، وعبثا ينحت فرهاد الأحجار.

الموكب حتى ترد الريح ريحَها إلى مشامّ الملك. وقدّام هؤلاء مائة سقاء معهم قرب الماء يرشون الطريق حتى لو هب هواء لم يحمل غباراً من الأرض فيمسه به. وحواليه ثلاثمائة فارس من شباب أولاد الملوك في ملابس الوشي، وعلى رأسه الدِرفَش الكابياني يخفق.

فخرج برويز على هذه الهيئة. وسمعت به شيرين فظاهرت بين حَلْيها وحُلَلها، وتبرجت في وشائعها ورفارفها، وصعدت إلى سطحها. ولما قرب موكب الملك أشرفت عليه، ووقفت بمرأى ومسمع منه وبكت، وقالت بصوت رخيم: أيها الملك الهمام! أين ذاك الحب والغرام؟ أين تلك الليالي التي كنت لا تذوق فيها طعم المنام؟ أين تلك المواثيق والعهود؟ ترى تلك الأيام تعود؟

لا رأى السوء من يراك يد الدهر وأحيا الإله من حياكا
أي نور لناظريّ إذا ما مرّ يوم وناظري لا يراكا

وطفقت تشكو إليه بثها وحزنها، وتذري دمعها، وتمري جفنها. فلما سمع الملك ذلك اصفر وجهه، واغرورقت بالدموع عيناه فنفذ إليها أربعين خادماً، ومركباً من المراكب الخاصة، وأمر أن تُحملَ إلى حُجرته المذهبة المرصعة. وسار في طريقه إلى متصيده. ولما قضى وطرَهُ من الصيدِ والقنصِ وطافَ في السهل والجبل ثنى عنانه نحو البلد في تلك المواكب الرائقة، والكواكب المونقة. والأرض تطن بأغاريد القيان، ونغمات المسمعات الحسان. فلما دخل إلى الإيوان خرجت شيرين وخرّت تقبّل الأرض تحت قدمه. فدعا الملك موبذ الموبذان وأمره أن يزوّجه شيرين على رسمهم وآيينهم فَفَعل. واستفاضت الأخبار في المدينة بتحوّل شيرين إلى قصر الملك. فعظم ذلك على أكابر الدولة وأعيان الحضرة، وسائر الموابذة والعلماء فلم يدخلوا ثلاثة أيام على برويز. فقعد في اليوم الرابع واستحضرهم واستدعاهم. فلما حضروا سألهم عن غيبتهم واستوحش لانقطاعهم. فلم يتكلم منهم أحد وأومَوا إلى موبذ الموبذان ليجيب الملك عنهم. فقام الموبذ وتلك بفصل ثم قال: أيها الملك! إنما ضاقت صدورنا منك لأنك أعدت شيرين إلى بيتك. وذكر فصلاً في مساويها. فسكت الملك ولم يحر جواباً. فقال الموبذ: غدا يجيبنا الملك عن كلامنا. فقاموا. ولما أصبحوا عادوا إلى إيوان الملك فأمر برويز بإحضار طست من الذهب الأحمر فيه دم عبيط. فوضع بين الناس فرأوا ذلك فتعجبوا. ثم أمر فرفعوا الطست وأراقوا الدم، وغسلوه ونظّفوه وطيّبوه ثم صقلوه حتى صار كأنه ضرة الشمس الطالعة، وأعادوه إلى المحفل. فقال الملك: هذا مثل شيرين. وإنها لما تحوّلت إلى بيتنا عادت طاهرة وإن كانت من قبلُ مساويها ظاهرة. فرضوا عن الملك ودعوا له، وانفض المجلس وعادوا إلى منازلهم. قال: وكان الملك ليلاً ونهاراً مع مريم بنت قيصر فغارت منها شيرين حتى سقتها سماً فماتت. ثم جعل الملك بعد سنة مكانها لشيرين.





خاتمة

قال مترجم الكتاب الملوك الأصغر فتح بن علي الأصبهاني: قد أعان الله وله الحمد على امتثال مراسم مولانا السلطان «الملك المعظم» ملك ملوك العرب والعجم، ضاعف الله اقتداره، وأعز أنصاره، في ترجمة هذا الكتاب البارع المشتمل على بحار لآلئ الحكم، ومعادن جواهر الكلم. فنزعت عن أعطافه أسمال اللسان العجمي، وكسوت معانيه أفواف البيان العربي، بألفاظ رشيقة، وعبارات أنيقة، وأسلوب يسلب القلوب، ويسحر العقول. ووشحته بقلائد مناقب الحضرة المعظمة السلطانية سالكاً سبيل عبوديتها عن خلوص الطوية، وصفاء النية. وخلدت بها ذكره مثبتاً على صفحات الأيام، مجدّداً على تعاقب الشهور والأعوام، مطبقاً طلاع الخافقين، سائراً في أكناف بلاد المشرقين. فإن هذا الكتاب ليس كسائر الكتب التي لا تفارق رباع المؤلفين، ولا تجاوز ديار المصنفين. لكونه مما ترتاح القلوب بمطالعة غرائبه، وتهتز النفوس إلى استماع قصصه وعجائبه. وليس قولي هذا إدلالاً بما أتيت، وإعجاباً بما ألّفت. فإنه لولا روائح سعادات هذه الحضرة التي لا تزال تهبّ عليّ وعلى العالمين جنوباً وشَمالاً، وميامنها التي تكتنفني وإياهم يميناً وشِمالاً لاستصعبتْ حوشيات ألفاظه النافرة من أن تخزم، وفي سلك البيان تقطر، واستعصتْ ريضات معانيه الجامحة أن تلجم بشكائم التقييد وتسطر. وقد كنت، في مقتبل تعرّضي له ناقلاً، وجدتني وكأني خلفت في العيّ باقلاً. فأنطقتني أياديه حتى صرت أساجل الإيادي فأملأ الدلو إلى عقد الكرب. وحلت مساعيه عقدة العيّ عن لسان قلمي حتى كأنه مصقع أخضر الجلدة من بيت العرب. وليس بِدْعاً من سعادته أن تزيل عن المفحمين العيّ والحصَر، وتهدي إلى المحجوبين البصيرة والبصر.

هذا. ولئن تشاكى الفردوسي في خاتمة كتابه حين لم يبلغ من سلطانه ما تمناه، ولم تصدقه مخيلة يمناه فلقد وجدت في هذا الجناب ما فقده من ضالّة الكرم، وبلغت ما لم يتمنه من الفواضل والنعم. وصادفت مع «أحسنتَ» إحساناً وإفضالا، وقبولاً وإقبالا. وحصلت من الانتماء إلى عبوديته مفاخر وشّحت بها مساعي الآباء والأسلاف، ورفعت بها على تعاقب الأحقاب أسامي الأعقاب والأخلاف، إذ فزت بسلطان لو رآه أفريذون عاقد التاج، وأنوشروان فارع سرير العاج لتضاءلا لرفيع قدره، وتصاغرا لعظيم أمره، واغترفا من بحار فضله وإفضاله، وخفضا طوامح أبصارهما دون مراقي سنائه وجلاله. ولو أدركه محمود لاقتبس من أنوار علومه، واهتدى بأضواء نجومه، وأسس مباني ملكه على قواعد عدله وإحسانه، ورأى العجب العجاب من آثار سيفه وسنانه، فلم يفتخر في نوادي المآثر بسود الأصابع، وتطامن لمن يباهي ببيض الأيادي وغرّ الصنائع. فإن شكا الفردوسي سوء حظه في عهده فإني شاكر في هذا العهد وفور الحظ وسعادة الجَد حتى لو بلغت درجة الطائيين نظماً، ونلت منزلة الصيادين نثراً، وملأت صحائف الزمان حمداً وشكراً لم أقم بحق رشحة من بحار عواطفه الزاخرة، ولم أف بوصف قطرة من ديم فواضله الهامرة. فالله تعالى يديم ملكه وسلطانه، ويعز أنصاره وأعوانه، ويرفع فوق معارج السناء مكانه، ويمتعه بأولاده وإخوته الملوك والسلاطين، ويخلد ملك المشارق والمغارب في أعقابه وأعقابهم إلى يوم الدين.

